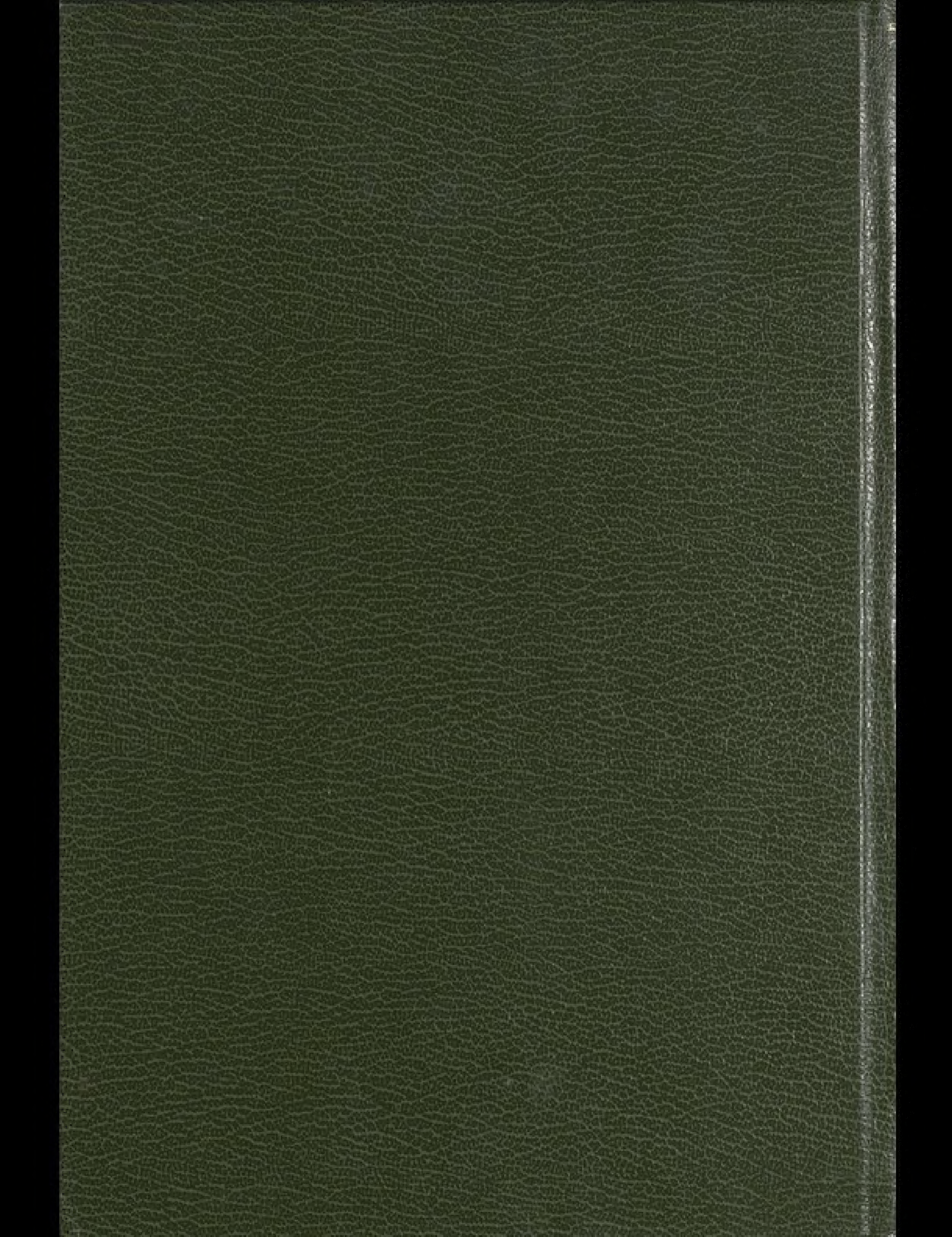



AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
UNIVERSITY
LIBRARY

ثورة الهند

او

المرأة الصابرة

وهي رواية تاريخية ادبية



ترجمها من اللغة الفارسية الى العربية

الميرزا يوسف خان

(المستوفي الاشتياني ابن اعتصام دفتر)



« طبعت في مطبعة الهلال بمصر سنة ١٣١٨ ه الموافقة سنة ١٩٠٠ م »

على نفقة ادارة الهلال





الميرزا يوسف خان

« المستوفي الاشتياني ابن اعتصام دفتر »

(مترجم هذه الرواية)



افادة من المترجم

لا يخفى على الافاضل العظام حسن وقوع الروايات لدى طبائعهم الغالبة وأي حكمة ابلغ واكفى لتبصير المتيقظ من التأمل بنظرٍ ثاقب في مجاري حالات الامم واستيفاء احوال الغابرين لانها تشتمل على كثير من الشؤون الجمة التي لا يمكنني التوسع في استيعابها وبيان حقائقها على ان مطالعها يتعظ بها ويعظ ويستفيد منها ويفيد . ثم ان رواية (ثورة الهند) التي نحن بصدد ترجمتها للعربية من الروايات النادرة الصحيحة الآخذة بمجامع القلوب ترجمت من الانكليزية الى الفارسية وطبعت في طهران عاصمة دولتنا سنة ١٣٠٤ فتقبلتها الطبائع وتناقلتها الالسنة . فاحببت ان اعربها واهديها لاندية الفضلاء الذين لا يجيدون قراءة اللغة الفارسية فترجمتها الى العربية بالحرف الواحد وما آليت جهداً في تنميق العبارة وان عثر فيها على قافية او سجع فانه قد جرى على سنن قلمي . ومع كوني فارسي الاصل معترفاً باني لست ممن يجيل جواده في هذا المضمار ولا ممن لهم اقتدار على خوض عباب ذلك البحر لا ارى لي باعثاً لتمهيد العذر ان وقفوا على زلاتي وقلما يتسنى لكاتب العصمة منها . هذا واعلم اني لا اخلو من ودودٍ يمدح او حسود يقدح فاقول ان احسنت فحسبي وان كنت اسأت فارجو الاغماض لا الاعتراض

(تبريز . ايران) (الميرزا يوسف خان المستوفي الاشتياني)



فاتحـة الرّواية

لا يخفى على الاذكياء المتدرّبين باحوال العالم · والمصطلعين بفنّ التاريخ ان من اعظم الدوائح المدهشة وافجع الوقائع الموحشة التي انتشت في الكرة الارضية عام ١٨٥٧ من الميلاد الموافق سنة ١٢٧٤ من الهجرة هي بلوى الهند التي اكتنفت اقطار هندستان بتمامها · فتزلزلت من وقوعها اركان تخيلات السياسيين وانهدمت مباني سياسة انكلتره وزعزعت الفتن الداخلية وعصاوة الاهالي استيلاءها وكادت تنقضي سلطانها عن هذه المستعمرة الجديدة واورثت تلك الانقلابات لهذه الدولة العظيمة خسائر جسيمة من المال والرجال ما يفوق طور التصديق

اما علل تلك الناجمة واسبابهـا الظاهرية على ما وقع عليها اقرار ساسة انكلتره فهي انها نشأت من توارد الافكار على هيجان مليّ وتظاهرات عظيمة ارادوا بها التخلص من ربقة تسلط انكلترا ونفوذها واستقلالها · والذي سبب اهاجة الخواطر سوء معاملة لورد (دالهوزي) حاكم الهند وعدم مبالاته وقلة حزمه وتحقيره للناس فزرعت سيئآت سياسته في احكامه بذر البغضاء والنفور في القلوب فملت الطبائع وانكسرت الضمائر فبلغ سيل العصيان الزُبى · وخربت قصور وعمرت قبورٌ

مضت على الامة البريطانية مدة خمسة وسبعين سنة من بدء تسلطها على هذه الممالك الفسيحة والمسالك الوسيعة حتى تغلبت عليها وحسنت تصرفاتها في اقاليمها الشاسعة فما لبثت ان تسابقت جرائدها وتزاحمت على ثملة اعمدة صحفها بما ينبئ عن كمال سرورهم وغلبة غرورهم فمن بعض ذلك ما يأتي :

« طالما سعت الملل واشتاقت الدول وحاول السلاطين بعزمهم الراسخ وهممهم الثابتة ان يستعمروا اقليماً من اقاليم الهند او يتملكوا بقعة من بقاعها او يسخّروا بلداً من بلادها زيادة على سلطنتهم كما هو دأبهم لكنهم طلبوا محالاً وحالت الاقدار بينهم وبين تمنياتهم فسخرتها دولة انكلتره بتدابيرها الصائبة وسيوفها الباترة وتوغلت جيوشها في سهولها وحزونها وارجفت القلوب بسطوتها حتى رقت مراقي الفلاح وانقادت لها هذه الشعوب المختلفة والامم الوحشية واتبعوا قوانينها باسهل الوسائل فحكمت دولة انكلتره على اكثر من ٢٥٠ مليون نسمة تقريباً »

هذا وما انقضت برهة من الزمان على تلك الوداعة والاستكانة حتى حدثت هذه الشغب والهياج فتغيرت اطوارها وخضعت نواصيها واشتعلت نار الفتنة من سنة الغفلة وتحركت حزازات تمكنت في القلوب منذ زمان طويل وغلت مراجل الصدور بالضغائن الكامنة وجعلت تفرخ وتبيض فيها حتى هاجوا وماجوا وعمت نار الفساد كل الارجاء واتسع الخرق على الراقع

واول طغيان ظهر ضد انكلترا من الفرقتين الخامسة عشرة والعشرين فاتبعهما جم غفير وتجمعت طوائف الهنود وتحالفوا على الثبات في الثورة فاضطرمت نيرانها اولاً من (بنكاله) ثم امتدت وازدادت بالتدريج حتى اشتعلت بالامصار واحاطت بها احاطة العقود بالاعناق

وفي ابتداء الحرب انهزمت الطغاة في ميرته ثم اجتمع الاهالي فقلدوا سلطانهم الاسبق الذي كان من سلالة الكوركانيين على السلطنة فتبوأ سرير الملك في (دهلي) وفي اثناء ذلك ثار اهل (لكهنو) بتمامها وقتل في مدة الهياج ثلاثة من قواد الانكليز واعاظم ضباطها وطغت على اثرها اهالي مملكة (اوده) واستقرت العساكر والعصاة على الفتك والقتل حتى ضاقت ميادين القتال وتوالت ثنايا المنايا

ثم اتسعت دائرة الفساد فادركت بلاد (آكره) و (بومباي) وكابدت دولة انكلترا في هذه الازمان مشاق كبيرة ونفقات باهظة حتى تمكنت من فتح دهلي فدخلتها قهراً في (٢٠) سبتمبر (فأسروا حاكمها مع حاشيته وابنائه وقتلوهم جميعاً ودخلت بقية العساكر بلدة (لكهنو) فتحوها . وخلاصة القول ان الثورات امتدت الى اوائل الصيف من سنة (١٨٥٩) الميلادية ثم ارتفعت حجب الهياج وانتهت اخيراً بواسطة (كامبل) القائد العام لعساكر انكلترا وصفا جو الهند من غبار الثورات رويداً رويداً وعادت الامنية وانقرضت من هذا التاريخ قوانين « كمپانى هند » وعينوا لها حاكماً مستقلاً وانمحت عنها الرسوم المجحفة القديمة . ولقب (كامبل) السردار المومى اليه بلقب (لورد كليد) في ازاء خدماته الفائقة واتخذت مملكة الهند بعد ذلك وزيراً في عداد وزراء انكلترا يقيم في عاصمتها لوندرة ليبحث عن شؤونها النافعة ويدفع مضارها

وفي اوقات امتداد الثورة تراكمت سحب الحتوف وتصادمت مع اعمار الناس

كثيرين من اناث وذكور وشبان وشيوخ فسقوا كؤوس المنايا مدهقة وبقيت من بقاياهم جماعة من النساء والعجزة يتقلبون على تراب الذل والهوان . وكانت بواخر الدولة الانكليزية تحمل هؤلاء التعساء الى انكلترا من جملتهم هذه التعيسة الايسة الخانم الانكليزية المسماة (مسترس هورتنست) التي قصت قصتها في اوتل (فندق) باريس للدكتور (فلكس ميارد) الطبيب مداويها ومعالج اسقامها . ولما كانت قصتها تحتوي عبراً عجيبة ترجمناها ليعتبر الغافلون في حال الامنية بها ولتنبه ارباب الثروة واليسار واصحاب النعمة والاعتبار . ويحترزوا من تبدل الحال . والابتلاء بالادبار بعد الاقبال وليؤدوا وظائف الشكر وسائلوا الله تعالى ان يديم عليهم ظلال رأفة السلاطين العظام . فانهم العروة الوثقى في نيل المرام . وهذه الثورة مواقعها مفصلة ضربنا عن ذكرها صفحاً اذ لا طائل تحتها وانما اوردنا هذه العجالة تمهيداً للمقدمة ولنشرع الآن في المقصود

~~~~~~~~

مقدمة

﴿ منقولة من قول الدكتور فلكس ميارد الطبيب ﴾

قال الدكتور المشار اليه كنت في فندق باريس على حسب عادة الجائزين وكانت امرأة انكليزية اسمها مسترس هورتنست اتخذت في هذا الفندق منزلاً لها وهي من النساء اللاتي ابتلين بالخطوب عند ثورة الهند الشهيرة واستيلاء الفئة الباغية فيها وكانت سفن انكلترا تحمل اولئك التعيسات في كل شهر مرتين الى مستشفى خاصتها لاصلاح احوالهن . اما هذه الامرأة فقد كانت لها حاشية واقوام بباريس فلما جاءت لوندرة اقامت بها برهة ثم رجعت الى باريس ترجو لطفهم وتفقدهم فاعتراها مرض في هذا المقام وانني انا الذي توليت معالجتها

ونحن الاطباء المباغية في تجسس الامور المؤدية الى الامراض والداعية لها نبحث عنها ادق بحث . ولا غرو فان الفحص والتنقيب من شرائط حرفتنا فسألتها عن علة اعتلال مزاجها وابتداء وقوع المرض فشرحت لي من قصتها الموجعة
~~~~~~~~

ما تنطع لها فأني من الحزن والاسف ووضح عندي ان أكثر مرضها من عارضة البلايا والقصص التي تجرّعتها . ومرضها الجسماني لا يقاس بامراضها الروحانية . وحصل لي من تقريراتها انها كانت متوطنة في الهند غريقة في بحور النعم ورفاه الحال . اما بعلها فكان رجلاً رقيق الجانب سهل الخلق صافي السريرة تعلوهُ التؤدة والوقار وكانت ابنتها زاهية في جلباب الشباب ذات قوام مياد وجمال فائق . وكان ابنها طفلاً نجيًا حسن الشكل لطيف الشمايل وكان صهرها شهماً مقداماً وديعاً متصفاً بالصفات الحسنة والمزايا السامية يتمثل في هذه العائلة اولاً زوجها وصهرها ثم بنتها وطفلها ويعتريها الفقر المدقع

ولما سمعت بعض قصتها تحقق عندي بالقواعد الطبيعية ان هذا الداء الذي اعتراها داء عضال لان المرض الجسماني وان كان شديداً يمكن ان يعالجهُ الطبيب الماهر بالادوية النافعة اما الامراض النفسانية فيعجز حذاق الاطباء عن معالجتها الأمن استطاع خرق العادة وهو امر عسير . ولغرابة ماجرى لها استأذنتها بترجمة قصتها للافرنسية ليكون ذلك تذكرة تاريخية لها فاجازتني وبادرت الى الترجمة وهاك تفصيلها

الفصل الاول

امارات الهياج

في اليوم الحادي عشر من شهر مايو سنة الف وثمانمائة وسبع وخمسين من الميلاد الموافقة سنة الف ومائتين وخمس وسبعين من الهجرة كانت شموس سعادتنا مشرقة وكنا في ظلالها ناعمين نرفل في ذيول الرفاهة لا تنفك نضارة الاوقات خادمة لنا والعز سادلاً رواقه علينا وكانت ثروتنا تزداد يوماً فيوماً وبعد ان يئستُ منذ مدة ست عشرة سنة من الانجاب بولد من الله جل وعلا عليّ به وجعلني قرينة الشكر على نعمائه . كأنهُ تبارك وتعالى نظر نظرة رحمة الى احوالي الآتية ومصائبي المستقبلة فوهب لي هذه الموهبة العظمى لتكون واسطة لاشتغالي ايام انفرادي واعتلالي

وقد كنا عازمين على زفاف (آلن) اختي وارسالها الى دار زوجها وكان زوجي مصمماً على ارجاع عائلتنا من الهند الى انكلترة وقد اوعز اليّ انه يريد بيع مزرعتنا التي تنبت النيل (النيل نوع من الصبغ تصبغ به الملابس وهو اعظم محصول الهند واغلاه قيمة وهو معروف كالنيلة) بيعاً قطعياً او ايجارها لأحد الزراع فيستريح من اعباء القيام بعمارتها وجمع محصولها وانه عازم على الرجوع الى الوطن · ولاتمام ذلك القصد خابر الدلالين الذين لهم خبرة واطلاع بجهة المزرعة وما زالت المذاكرة جارية في (مدراس) و (بومباي) وكانت الاجوبة التي تصل الينا منهم مشتملة على معذرة في حصول املنا من بيع المزرعة منذرة في ختامها بالحوادث والاتفاقات التي تحدث في قارة اوربا عموماً وفي الهند خصوصاً وهي قريبة الظهور

ففي جملة كتبهم الينا كتاب فحواه « ان العساكر الهندية في بنكالة وسائر النقط اتفقوا على الثورة والهياج » ولهذه الثورة اسباب منها ان رصاصات البنادق التي كانت تحمل الى الهند كان ارباب المعامل يدهنونها بدهن خاص بناء على الوضع الجديد الذي اخترعوه · فتصوّر الهنود من المسلمين وعبدة الاصنام انها ملوثة بدهن الخنزير او شحم البقر فتناقلت الالسنة ذلك الخبر فقامت على تصديقه كل الشعوب والاجيال لان احد هذين الحيوانين محرم ديناً والآخر داع للاجتناب والنفرة · وكان العساكر قد اجبرتهم قوادهم على استعمال تلك الرصاصات فاستفتوا براهمتهم وعلماءهم في جواز استعمالها فمنعوهم منعاً اكيداً فاصبح ذلك سبباً للهياج وتصور الهنود ان ذلك مبنيٌّ على اهانة دينية وان انكلترا تريد خرق قواعدهم واديانهم

وقرأنا في كتاب آخر خبر طغيان الفوج (الآلاي) التاسع عشر من مشاة العساكر المأمورين بحراسة بلدة (رامبور) وحدودها وانهم اعلنوا العصيان على انكلترة واحرقوا تلغرافخانة (بادكبور) وشرعوا بالفتك والنهب في قراها وضواحيها واغاروا على الانكليز يخربون دورهم ويحرقون زروعهم · ومن الحوادث التي حدثت قبيل الثورة وكانت مصدراً لها ان بعض الاهالي كانوا يلبسون بلباس البراهمة والدراويش ويتجولون في اطراف المدن الهندية يندّدون بالافرنجيين ساعين في ايقاد نار الطغيان بانواع الدسائس والمكايد ويقدمون للاهالي رغفاً على هيئة خاصة تشبه البلور الطري بحيث اذا رأتها الاهالي اثرت فيهم فتظهر من رؤيتها علامات البغضاء .

والصفرة على وجوههم وجباههم

وكانت الافواج الهندية عند حضورهم في ساحة الاستعراض للحركات النظامية تصل الى يد رجل منهم واحدةٌ من البلوفر الخبز الطبيعي او الرغيف المشابه لها بواسطة خفية لا يدري الفطن المدرّب من اي شخص حصل وفي اي ساعة وصل فيتخذه هذا العسكري ويعانق فيه متأملاً ثم يأخذهُ رفيقه الذي بجانبه حتى تتناقله افراد العساكر واحداً بعد واحد ويدور الرغيف من رديف الى رديف فيحدث تغير كلي في الوانهم وتبدو من ملامحهم امارات العداوة

ان العيون لتبدي في تواظرها ☆ ما في القلوب من البغضاء والاحن

اما اصل تلك العلامة الوخيمة المترتبة على رؤية البلوفر فانا لم نقف على حقيقته الى الآن مع اقامتنا بين قبائل الهند وشعوبها . وكانت الاخبار الموحشة المتواترة تنذرنا وتجعلنا في خوف وتوحش عميق تحكم بسفرنا من دهلي الى اوطاننا بالعجلة التامة وان لا نتوقف في الهند اكثر من ثمانية او تسعة ايام . وكنا في بعض محافلنا نتجاذب اهداب المحاورة في الحوادث الداخلية فنتكلم عن السلطة الكاملة التي حصلت لانكلترا في هذه الاوقات في الهند وعن الضعف البالغ منتهاه والطاعة التي لازمت الهنود فانهم لا يقدرون على ارتكاب اقل خلاف وكنا نحمل التفاصيل الواردة الينا من الدلالين على الاغراق . وآخر حدس خطر ببالي انهم يريدون ايحاشنا وتهويلنا بتلك الخرافات والاباطيل لنترك ضياعنا وعقارنا بلا ثمن بخس فيتمكنوا من مقاصدهم الفاسدة . والذي اكد عقيدتي هذه ان صهري (ويليام هود) الحائز درجة النيابة في الفوج (الفرقة او الآلاي) المهندس الانكليزي كان من المعترفين بحرفة الدلالين على ان هذا الشاب الشديد الشكيمة كان يلاقينا في مزرعتنا التي بخارج دهلي اغلب الليالي ويتكلم على دقائق سياسة انكلترا واتقان قوانينها العسكرية ثم يبرهن على تكذيب الاخبار المنقولة فيهدأ روعنا وتطمئن خواطرنا

وكان يقول في غضون كلامه انني في كثير من الحروب ان اربعة من انفار الانكليز حكموا على اربعة قبائل هندية وقادوهم كما يقود الراعي قطيع الغنم اذا شاء اوردها المرعى واذا شاء اصدرها

الفصل الثاني

توارد الخواطر

في بعض الليالي التي كان يتخلف فيها وليام عن القدوم الينا للقيام على حراسة قلعة (سيتور) كانت حالتنا ترتجف من الهواجس والمخاوف وكانت تحجم عندي الصور الخيالية في هيآت مهيبة وقوالب مختلفة وتتراءى لي اشكال متنوعة في اليقظة والنوم وكأن ملهماً غيبياً يلهمني باختلال امرنا وان نبيع املاكنا ونخرج من الهند لاني كنت اتوسم في امورنا علائم الادبار وانه قد آذنت شموس اقبالنا بالافول وكنت طوراً اكلف زوجي ان يبيع ممتلكاته بقيمة زهيدة او يتركها سدًى ويقنع بالنقود الحاضرة لنركب باخرة ونفرّ الى لوندره · فيا لله وقلق الاحوال والاهوال

اما زوجي فكان يتعجب من وحشتي ويعزوني الى الجنون ويقول « اني لا ابرح مكاني هذا حتى اقتطف ثمار مزرعتي وانجح املي وتربح تجارتي » ولا انسب زوجي الى الشره في احتشاد الاموال وطول الامل فان مزرعتنا كانت جسيمة المنافع عامرة تنفعنا بمبالغ خطيرة في كل سنة لا نظير لها في ضواحي (كلكوتا واله اباد) معدودة في الدرجة الاولى وقد قوّمت بقيمة مائة وثلاثة وعشرين الف تومان وكانت مطمحاً لانظار الملاكين · وعقيدة زوجي اننا لو بقينا في الهند ثلاث سنين اخرى ازدادت ثروتنا الحاضرة ازدياداً كبيراً وبلغت مائتي الف تومان

ومن اللوازم الضرورية القانونية ان نهب لبنتنا آلي مالاً كافياً من الجهاز عند ارسالها الى دار زوجها والقصد الوحيد من المكث في الهند تحصيل مال يعادل عشرين الف ليرة وهذا هو المبلغ الذي علينا تأديته لآلي عند تجهيزها · وطالما كنت اسعى في تنبيه زوجي الى احتقاد متوقد في القلوب ستارها الرماد الظاهري وان الرعايا الذين يسكنون اطراف مزرعتنا يعادوننا جداً ويترصدون وقوع حادثة قريبة ليهدموا بيتنا ويطحطوا عقارنا وتلادنا ولكنه ما نبه لملاحظاتي ومطالعاتي ابداً كأني اضرب في حديد بارد وما الفائدة اذا حلّ القضا واتسع الخرق · وكنا نسالك طريق الخشونة في المعاملة مع الرعايا وزراعيهم اكثر من الزراع في اسعاف تمنياتهم

وهم يبدون لنا ظاهرًا حسنًا ولكنهم لا ينصرفون عن عداوتهم الراسخة في قلوبهم وبغضهم القديم

وفي ليلة من هذه الليالي جاءنا واحدٌ من معارف الدلالين واتانا بمبلغ جسيم لشراء المزرعة وقطع معاملتها المعهودة فشمخ زوجي بانفهِ كبرًا واعرض عن بيعها لتحقيق آمالهِ بجمع الثروة الخيالية فاهمل امر بيعها واذن بالذهاب الى انكلترا . فاربحت تجارتهُ حتى بلغنا ما بلغ واحاطت بنا النوائب من كل جانب ودارت علينا الدوائر فتركتني كما ترى وحيدة فريدة : يرثي لي الشامت ويبكي لي العدوُّ وطرحتني في ورطة التعاسة لا اقدر على شيء . بعدما كنت غريقة في بحور النعمة واليسار . فقتل زوجي وصهري وبنتي وابني ونفد زادي وباد قوتي وخلت يدي وتحطمت اركان حياتي واشتعلت مصابيح المصاعب في رأسي . آه الآن قد ندمتُ حيث لا تنفع ندامتي ان الالهام القلبي طالما نصحني ونهى الى اخبار ابتلائي لكنني ما اتعظت حتى أصابني ما اصاب . وفي اليوم الذي اعرض زوجي فيهِ عن بيع المزرعة خرجت معهُ وبنتي وصهري وابني « ويل » للتنزه على شاطىء نهرجنا وكنا نتذاكر في مسائل اراد اجراءها بعض اعاظم القسوس لتحويل الهنود الى النصرانية فجميع القلوب وبوحد الثبات وان هذا الشخص نترد برأيهِ الضعيف ويعتقد انهُ لابد من اجبار الهنود على تغيير المسالك واتخاذ هذه الطريقة كرهوها او احبوها . واخذت مكالمتنا هذه طرفًا من التحقيق الدقيق وذهبت بنا سبل الكلام في سرد المضارّ المطابقة على هذا القصد والمنافع المترتبة عليهِ اذا تمَّ فوقعت بين آراء اربعة

وانما قلت بين آراء اربعة واخرجت ابني من انخراط هذا المسلك لنقصان شعورهِ وعدم استغناقهِ الذي لم يرقَ في حوزة المكالمة . كنا مشتغلين بالبحث والجدال و (ويل) يلعب تارة يعدو سريعًا ويسابقنا في المشي واخرى يرجع مهرولاً آخذا بيدي او بيد اختهِ حتى وصلنا والحالة هذه الى طريق ضيق قد تغيلت الاشجار فيهِ والتفت فاعوجَّ الطريق مايلاً ورأينا ثمت درويشًا هنديًا قد توسد في عرض الطريق وسدَّ المسالك على المارة وكان ويل كما قلت امامنا مشتغلاً باللهو واللعب باقدنا . طفوليتهِ فما وصل ذلك المقام الا ورجع القهقرى مرتاعًا صائمًا وكانت آلن مع ويليام يتقدمانا في المشي وانا مع زوجي نمشي على عشر خطوات منهما فلما عاين

وبليام وحشة وبل وفزعه من مشاهدة الدرويش دنا هو من الدرويش وهدده قائلاً له « قم وافتح الطريق » فما تحرك الدرويش ابداً فاستشاط وبليام وتفتفر غضباً وكان معه اربعة عساكر فقال لهم : خذوا هذا الكلب والقوه في النهر ! فتقدموا بجموعهم واخذوا برجلي الدرويش وبديه وحملوه ليطرحوه في (نهر جمنا) عملاً بامر رئيسهم فاسرعت لاسعهم فادركتهم قبل فوات الفرصة ومنعتهم من القائه في النهر ثم اخرجت (روبية) من جيبي واعطيتها لوبل فذهب بها الى الدرويش من غير وحشة ووضعها في محاذاة فمه وهو نائم ثم رجع

فاخذ الدرويش الروبية وتحرك عن مقامه بمزيد الوقار وفتح الطريق . واما وبليام وآلن فلما جاوزنا ذلك الموضع والدرويش مضطجع بجنبه نظر اليهما نظرة زجاء ويقين وقال « ستفتح طرق الهند وتخرج من ضيقها الحالي وستطهر مسالكها الواسعة من رجس وجودكم » ولما مرّ زوجي نظر اليه محملقاً وقال : سيغلب عباد الله واولو الحق على الكفرة الفجرة ! ولما دنوت منه مع طفلي واجه وبل بملامح التلهف والتحسر وقال (اديت فديتك ايها الطفل المحبوب لكنها لا تدفع القضاء المحتوم)

فأثر تقرير الدرويش في قلبي تأثيراً عظيماً ولما رجعنا نقلت ما سمعته الى زوجي وو بليام ليسمع فقال وهو يضحك يدّعي الدراويش كثيراً من امثال تلك الخزعبلات والادعاآت الباطلة . وشفع قوله بقصة من قصص اولئك المراصين المحتوية على الاغراق واكاذيبهم البعيدة عن التصديق فتبعته في الضحك وصدقت قوله ان لا اغترّ بترهات الدراويش لكن ازدادت اهوالي واوهامي السابقة بعد ذلك

الفصل الثالث

الضيافة

وفي ليلة من ليالي هذا الاسبوع كان زوجي مدعوّاً في بيت واحد من ضباط النظام فذهب تلك الليلة الى الضيافة في الساعة المعينة وتأخر عن الرجوع في الوقت المعين ومضت ثلث ساعات من نصف الليل ولم يعد فاستوحشت كثيراً

وكان خوفي يومئذٍ من طائفة (نوك) الذين يختلون في المكامن ليلاً ويأخذون من يجدونهم منفردين ويخنقونهم يحسبون ذلك فرضاً دينياً يتوقعون عليه الثواب · وكان مجتمعهم عند جسر (مدرته) ولا بد لبعلي من ان يجتاز ذلك الجسر في رجوعه وما زالت اماني الوساوس والاوهام حتى صممت على ارسال بعض خدامنا المطيعين ليكونوا في خفارته وفيما انا على هذا العزم واذا بخفق النعال وصهيل الخيل طرقا باب سمعي فلم تمض برهة وجيزة الا وصل زوجي ومعه عشرة من فرسان الاهالي وضابط نظامي فلما رآني مسلوبة اللون باكية سألني عن العلة فاظهرت له وحشتي من ابطائه فمازحني حتى انطفأت لوعة كربي وطالت مكالمتنا وعاد الفرسان بسرعة لضيق الوقت · وما جروا ريثما يأخذون انعاماً في ازاء خدمتهم هذه ولما تنبهت لهذا الامر امرت ناظر البيت ان يعطي لهم شيئاً برسم الانعام فقال انهم ذهبوا وما صبروا

فتطلعت عليهم من نافذة من نوافذ البيت فرأيتهم يقولون لرئيسهم عند الذهاب اما ترى عدم اعتناء هذا الشخص بنا · اما ترى ابتذال حقوقنا عند اهالي انكلترة · اما ترى كيف اطلقوا أيدي الجور والاستبداد في اموالنا وانفسنا قلوب محزنة وخواطر مستكنة · الى كم نتجرع العسف ونذوق الهوان من ايدي الافرنجيين والى م نرسف في قيود الذل وحتام نسام العذاب · قد ازدادت صدماتنا الواردة من قبلهم فسنكافئهم ونستأصل شأفتهم ان شاء الله

ومع ذلك فقد كانت مدينة دهلي وضواحيها ومزارعها مأمونة المرور والزراعة محفوظة لا يتخللها شيء من الخلل وكنا نجد الناس مشتغلين بمكاسبهم ومعاملاتهم بحيث لم يكن يشاهد في دهلي و(اكره) و(اكبراباد) وسائر البلاد الواقعة بجانب الشارع الاعظم الا الامن التام والسلم السائد والسكينة الشاملة على ان امارات الهياج كانت ظاهرة على جباه الفلاحين وفي ثنايا خطاباتهم · فما لبث الاهالي ان خرقوا حجاب الستر وابدوا شكاياتهم علانية وكانت العساكر الهندية بعد اتمام حركاتهم النظامية عند خروجهم الى اطراف دهلي يتجسسون البيوت والمساكن المتعلقة بالانكليز كانهم ينشدون ضالتهم · وبعد مضي ايام قلائل جاءتنا انباء الثورة تباعاً من (لوكوف) ان الهنود يتأهبون للثورة ومن (اوده) ان طائفة (نوك) المتقدم

ذكرها خرجوا من الزوايا والمكامن غير هائبين البوليس والحراس واشتغلوا بالفتك والخنق الى غير ذلك من الفظائع الشنيعة وان فيوليني (كاندوو يول) تسرقان الاطفال وتعلمانها بخدمات مختلفة وان الهرج يتوسع شيئاً فشيئاً وبلغنا اخيراً ان هذه الطائفة سرقت في ناحية (جيبود) عدة اطفال من اشرف العائلات الانكليزية وذبحتها كما تذبح الجزر وان تجري احتفالات عظيمة وتظاهرات جسيمة في الجوامع والبيع وتعقد مجالس خاصة بصنوف القبائل في الكنائس والمساجد يدعون الله تعالى ويبتهلون اليه ان يبيد حكومة انكلترا ويتلون الخطب المهيجة في اضمحلالها واستقرار سلطنة الهند في العائلة الكوركانية

وكان من اعتقاد الجماعة ان دولة الانكليز لاتتمكن من اخضاع الهند والتغلب عليها اكثر من مائة سنة فعلى ذلك يجب ان تنصرم عرى استيلائها في هذه الاوقات لانها قد استولت على الهند سنة (١٧٥٧) الغاية الآن وهي سنة (١٨٥٧) وقد تم القرن المعهود وبلغ عدد سني تسلطهم المائة وستبدل صولتها بالضعف واستيلائها بالاستئصال ومع تواتر الاخبار الموحشة كانت اكناف دهلي غارقة في بحور الاطمئنان

ختمنا شهر ابريل بسعادة وهناء وشرعنا باقامة وليمة عرس آلن وويليام للقيام بما اقتضاه قلبي لا بل كما تقتضي كل ام رؤوفة حنونة لبنتها وفلذة كبدها وتوجه املي للحصول على ساعة زواجها وانا لا اترك دقيقة على حسب ما تكنه المحبة القلبية من الاحساسات العائلية فجعلنا اليوم الحادي عشر من هذا الشهر ميعاداً لابتداء العرس ودعونا معارف الخواتين واكابر البنات وعقائل الخدرات وعقلاء القواد والضباط العسكرية وفرقنا بطاقات الدعوة واخذنا في التأهبات اللائقة

آه وا اسفي على خسران امالي وخيبة آمالي وانكسار قلبي الذي ملأه الزمان املاً وما بسط له ساعداً ولا فتح له باباً



الفصل الرابع

﴿ اقامة العرس ﴾

جاء اليوم المعين واجتمعت المدعوات والخواتين واحتفل الرجال ومدت الولائم واعدت المشروبات واخذنا في دواعي السرور والهن تذرّه مع اترابها ربات الحسن والدلال وويليام آخذ بمجامع الصحبة مع اقرانه يطارحهم الاحاديث والانغام الموسيقية تجدد نشاط قلوبنا بضربها المطرب

وما زلنا على هذه الحالة والقلوب فرحة والخواطر منبسطة واذا بحادثة بغتي نغص عيشنا الرغيد وهي ان الدهباشي « الاونباشي » سيلي في فوج ويليام فتح باب الغرفة التي كنا فيها وهي حافلة بالرجال والنساء فدخلها والبغتة ظاهرة على وجهه حتى وقف امام ويليام وناجاه اكثر من نصف ساعة . فكالمته السرية مع عدم استئذاننا ودخوله في مجمعنا بهذه الجسارة فضلاً عن سحنته الموحشة المصفرة وصوته المتزلزل وحديثه الطويل مع رئيسه وارتعاش يده اثناء الكلام وتلجلج لسانه اوقعنا كل ذلك في دهشة وحال بيننا وبين الطعام وتجمهرنا حول سيلي وويليام ونحن نستطلعها الخبر وهما لا يعبآن بنا . ولما تمت الجوبة اذن له بالذهاب وقال جهاراً بصوت عالٍ سمعه كل الاحباب والخدام « اوعز الى فرقتي العسكرية بان تكون مستعدة تتأهب للحركة ريثما أصل »

وكنا كلما نلح عليه في كشف المسألة ونستفهمه عن سبب مجيء سيلي ولما أمر باحضار فرقته والى اين يذهب بها زاد اصراراً على اخفاء الامر وتقليل الجواب وظل ساكتاً باهتاً لا ينبوه ببنت شفة . فلما تجاوز الحاحنا حد الطاقة اجابنا بهذه العجالة « امرني الجنرال كراو ان اعجل بايصال فرقتي اليه بعد ساعة واحدة » هذا ما اجابنا به ويليام تسكيناً لوحشتنا وقلقنا وهل يخفى الامر وقد ظهرت على جبين ويليام جداول الاضطراب يشاهد فيها علامات ينبئ للرائي انه بداهتنا وان ما يظهره يخالف لما يضمره في قلبه ورب سكوت ابلغ من بيان

فاكببت آلحّ على ويليام بجوامعها وقتئذ ملتمس منه بيان الحقيقة وايضاح العلة

الداعية لذهابه وهو مع ذلك لايتكلم ابداً فامضت على تلك الحالة هنيهة واذا بواحد من ملازميها دخل الغرفة وقال لوبليام « الفرس حاضر والفرقة مستعدة تنتظر وصولكم » ولما قرع هذا الخبر باب اذنه قام مجلاً وافلت يده من يد عروسه الآن وخرج من غيران يودع حضار المجلس او يسلم عليهم بكلام . ثم تسمع صهيل جواده وقصد سمت دهلي وما كانت عجلته هذه الا للتملص من ايدي الشبان والحاضرين في كشف السر فما بعد عنا بقدر غلوة الا ورجع القهقري عن طريق البساتين فوقف خلف الجدران وربط فرسه لشجرة وجاء مختفياً بحجرة البيت واشار الى البواب وهو من معتمدي خدامنا ان يحضر لديه زوجتي باي تدبير يعلمه ليوعز اليه بعض المطالب الخفية التي لابد من اعلامها

ذهب وبليام ونحن حيارى والضيوف مجبورون لتناول قليل من الغذاء فجلسنا على المائدة واعددنا النفوس للاكل ولكن اين الاشتهاء . فلم يكن كرجع النفس او لمع القبس حتى دخل بوابنا وليس في وجهه شيء من مظاهر الاضطراب فتقرب من زوجي ووقف قبالته وناجاه قليلاً فقام زوجي من غير تأمل وخرج واشتغلنا بالغذاء وكان على المائدة رجل من ضباط النظام اراد تطييب نفوسنا بشيء من الطلاعة وايناسنا بملاطفات تجلو صدأ قلوبنا فقال « لا اهمية لذهاب وبليام وقد اوحشكم من غير سبب واملي وطيد بانه سيعود ومن المعلوم ان كل قائد كبير يريد اظهار قدرته في الامور العسكرية وتنفيذ اوامره في حق ضباطه واجرائه واني على يقين ان وبليام حضر مجلس عرسه بدون اجازة من الجنرال كراو فاراد باحضاره تنبيهه على هذا وقد جرت على ذلك عادات اعاظم القواد وتعودوها في اقامة ناموسهم السياسي »

فما طابت نفوسنا على هاته الصحبة المشوبة بالملاحظات الريائية وصرنا نتعلل بالطعام والوحشة باقية والاوهام الباطلة تتقاطر على مخيلتي كتقاطر الامطار . مضت خمس دقائق وتجاوزت العشر وضربت الساعة الربع والنصف وما رجع زوجي ليت شعري اين توقف . وماذا حدث يا ترى ؟ فتعذرت للقيام عن المائدة مراراً لابحث عنه فمنعتني ملاحظة الاضياف وجعلت امامي سداً سديداً مخافة ان يقعوا في وحشة اكثر من الاول فجلست وانا اتقلب على جمر الانتظار ولكن لم يطل الحال

حتى دخل زوجي وهو مرتعش الايد متغير اللون فقعد فوق كرسيه ونحن سكوت كأن على رؤوسنا الطير فاشار اليّ ان اذهب بالخواتين الى الغرفة الاخرى ولكني لم افهم هذه الاشارة الخفية لشدة الحيرة وغلبة الدهشة فظللتُ باهتة واتبعني النسوان وجلسن على كراسيهن المعدة هناك فغلب على محفلنا سكوت عميق لا يسمع فيه الاّ طنين الذباب ولا يرى فيه الاّ البهوت والسكوت

ولما رأى زوجي اصرارهن على الجلوس اشار الى الخدمة بالخروج فما قدرت وقتئذ على تمالك نفسي فقمت من مجلسي واخذت بيده وقلت « لقد تقطعت اكبادنا اليوم وكادت قلوبنا تنفطر بالله عليك اعلمنا بالواقعة هل حدثت مضار تجارية او خسارة مالية لشركائك المقيمين في كلكوتا ومدراس ام حدثت حادثة اخرى لا نعرف رتبتها فاشرح لنا بعض ما اطلعت عليه لتطمئن قلوبنا » فاجابني يا حبذا لو وصلني خبر فناء رزقي ومكانتي باسرها ثم توجه الى النسوان وقال بنهاية الادب « ايتها الكريمات الخيرات اني ارجو خروجكن من الغرفة برهة قليلة فان لي مطالب مخصوصة مع الرجال اريد الاختلاء بهم للخوض فيها وحضوركن سبب لاختلال الحواس وارتباك الآراء على انكن ستطلعن على السر في عجالة الحال فاخرجن من غير تأخير »

فازدادت وحشتنا ولحقنا اضطراب عظيم من سماع هذا الكلام ولم يؤثر سؤال زوجي فيهن وبقين على كراسيهن كأنهن اخشاب مسندة او صور منقوشة على الجدران وتعذرتُ القيام فما امكني ولما شاهد زوجي هول هذا المطلع قال « اني اردت بتوليّ صلاحاً لحالكنّ وقد اديت ما عندي من النصيحة ولما امتنعتن عن اطاعتي فاليكن البيان : ان نيران العصيان التي شبت اولاً في ميرتهة ما لبثت ان توقدت واتسعت حتى امتدت الى سائر الانحاء. وذلك ان العساكر المقيمين في ميرتهة اضرموا عوامل الطغيان وقتلوا ضباطهم وقوادهم كافة واستولوا على الانكليز واشتعلت بينهم نيران الحرب فاطلقوا في ميادين الحتوف اعنة صوارم السيوف . وقد تحركوا الآن الى دهلي واراد الجنرال كراو مقاتلتهم وارسل الى ويليام ليحضر جميع الافراد العصاة وقد صرح لي ويليام بهذا على حذر ألاّ يتوحش الحاضرون ويتنغص عيشهم لاسيما عروسة آلن وذلك لصفاء سريرته ودماثة اخلاقه فانه قصد دهلي على مرأى منكم ثم رجع اليّ واسرّ اليّ ما بينته لكم »

الفصل الخامس

﴿ انكشاف السر ﴾

فلما برح الخفاء وانكشف اللثام عن وجه الحقيقة بقيت الابدان جامدة واصفرت الوجوه وجفت الافواه فقضت والحالة هذه بضع دقائق ثم انتبهنا واجتمعنا رجالاً ونساء حول زوجي وجعلنا كرسيه مركزاً لدائرتنا وشرعنا نسأله عن العلة الداعية للثورة . اما ابنتي فقد كانت مقبلة الى الجدار وقد انحدرت لآلئ دموعها على وجناتها باسطة يديها نحو السماء بكل خشوع وابتهال تتضرع الى الله ان يحفظ زوجها من كل شر وسوء فتصدت تسليتها بكلام رقيق لتسكين روعها واذا بالاثنين من رضعائها اللذين حضرانا في هذا الحواس تعلقا بذيلي وهما تبكيان باعلى صوتهما وطفقت الاضياف يمرحون وارتفعت الضوضاء من دارنا واختلط البعض بالبعض . والرجال الذين كان من حقوقهم ان يجتمعوا هناك للنظر في الخلاص من هذه الداهية الدهياء وقعوا في هرج عظيم لعجز عن وصفه نطاق بياني لانهم اوثروا زوجاتهم واخواتهم وبناتهم فبالها من باقة ادهلت الحايلة عن الحابل . واسوء بختنا ان دارنا هذه واقعة في شارع كبير ينتهي الى ميرتهة والطغاة اذا ارادوا الدخول في دهلي لابد من ان يعبروا هذا الطريق ونحن سنكون عرضة لسهام البلايا قبل الآخرين . وكان (كران) فسيدنا مشتغلاً وقتئذ بالصلاة بجأش ثابت من غير ان يندهش من قلق ذلك اليوم العصيب ولما فرغ من تقديم الفرائض المذهبية امر النساء بالخروج من الغرفة والرجال بالاجتماع المتشاورة فتقدمت سائر النساء واتبعني في الخروج فنزلنا قاعة في الدار ونحن نتهادى تهادي الولهان واذا بها قد اكتظت بعدد غفير من ملازمينا وخدامنا الهنديين . ولما رأوني ثارت بهم الحمية فاقبلوا الي مظهرين سلامة نياتهم قبنا والتمسوا منا تسليحهم بالآلات الحربية المدافعة . فاجبتهم بجواب ودعوت ابني وبل وبعدما ضممته الى صدري وقبلته مراراً رفعته فوق يدي في مشهد الجمع فلما شاهدوا هذا العمل مني الآ ورقت قلوبهم واكدوا لي الوفاء

هل ترى يحبون ابي من صميم القلب ؟ ام هم يريدون بالتظاهر بذلك
العناوين ان يفوزوا بمقاصدهم ويتحصنوا بادوات الحرب لوقاية نفوسهم · نعم انهم
يحبون ابي من صميم قلوبهم لاننا كنا نتفقد لاجله احوال المصابين بالفقر ونكسي
اليتامى واليتيمات ونراعي مرضى الهنود بارسال الدواء والغذاء ونتصدق بصدقات
جسيمة ليكون هذا الطفل محفوظاً من الآفات · وكان قد اشتهر في قاطبة المزارع
عند الفقراء وابناء السبيل بالجود والسخاء ولذلك دخلت محبة في قلوبهم وهذا
هو الدليل البيّن لحبهم اياه (ومن وجد الاحسان قيداً تقيّد)

وخلاصة القول ان مظاهرات خدامنا تركتنا في اطمئنان وكنت اقول في
نفسي ان ثورة العساكر لا تستلزم ثورة الرعايا وان طغيانهم امرٌ خاص لا يعمّ الملة
وهي راغبة في حكومة الانكليز مائلة اليها وقد انقادت لاوامرها انقياداً تاماً وستنطفىء
نيران الهياج والشغب بمظاهرة الرعايا ومعاونتها وستعود شرائط الامنية ورسوم الرفاه
قريباً في اقطار الهند واكنافها · تسليت بهاته الاوهام ويا ليتها دامت لحظة
اخرى لاني لما توسمت هذا الجمع الكبير في ساحة الدار واحداً بعد واحد ما وجدت
فيهم رجلاً من رعايانا لانهم كانوا من ملازمينا وخدامنا الخصوصيين اما الرعايا فقد
تباعدوا عنا وغلب على حدسي انهم اتفقوا حينئذٍ مع العصاة وعاهدوهم في باطن الامر
وهم يريدون ان يتلافوا ما كابدوه في هذه المدة من الشقاء · وكان ظني معقولاً
لانه مع الحقارة والاشفاق اللذين كنا نبذلهما لهم والهنود كافة كانوا لا يقتدرون على
كظم غيظهم وكتمان بانهم المادية لتباين المشرب وتضارب المذهب · وطالما القى
القبض عليهم بوليس الانكليز وحبسهم وطردهم غير انهم كانوا لا ينصرفون عن
مجاهرتهم بالعدوان وتذمرهم مع تلك التهديدات · وكنا نرى نار الخصومة ملتهبة منذ
اعوام واعصار من اول توطننا الهند واشتغالنا فيها بعمارة الاراضي والزراعة وقد عبرت
الدهور وكرّت العصور وهم يئنون تحت احمال العصبية ينتظرون الفوز بآمالهم
وابراز ما تكنه صدورهم وتضمره قلوبهم في حق الافرنجيين · فاشتعل وقتئذٍ ضرام
جمر كنا نشاهد وميضاً من خلل رماد العداوة والبغضاء

هذه حقيقة آرائي الاجمالية واذا كان الامر كذلك فقد وقعنا في مهاوي المهالك
والمنتظر وقوع النكبات والغارات والقتل والنهب · فرقصت الخيالات في قلبي وكنت

مترددة في تصديق رأيي وتكذيبه واذا بزوجي خرج من الغرفة فانهالت في اثره الرجال من المجلس بعد مؤامرات ومذاكرات فعلا من خدامنا صوت « فلتحي انكلترة ولتهلك الفئة الباغية وزمرة العصاة شرفونا بالاسلحة لنكون معكم بهمتنا الاجتماعية في دفع الثائرين وردعهم وان لكم في ذمتنا حقوق نعم تنعمنا بها منذ زمن طويل هي كالاطواق في اعناقنا يجب علينا القيام بايفاء شرائطها فلها تداول البيض الصفاح . وبذل نفائس الارواح » ومع الرفاهية التامة الحاصلة للانكليز في الهند كانوا قد اعدوا في مزارعهم مخازن الاسلحة على سبيل الاحتياط لدفع المضار التي كانوا يخافونها من الوحوش والسباع السارحة في الآجام والغابات التي كثيرًا ما كانت تخرج منها وتجول في اطراف المزارع فتدخل البيوت احيانًا وتخطف الصبيان وكانت تلحق اضرارها بالاهالي وربما قتلنا عدة منها على سبيل الاتفاق وكنا لا نقدر على النوم في اغلب الليالي من عواء الذئاب وصياح الثعالب وجلبة السباع والنمور

فتحنا باب ذلك المخزن حينئذ واخرجنا منه خمسين بندقية وثلثين مسدسًا ووزعناها في الخدمة والضيوف ثم فتحنا صناديق الرصاص وقسمنا ما فيها فما مضت ساعة من ذهاب وبابام الا وقد تقلدوا اسلحتهم وتمنطقوا سيوفهم وتهيأوا للدفاع والمقاتلة تهيؤا تامًا بحيث لم ينقصنا شيء من الادوات النارية

الفصل السادس

﴿ الالتجاء الى الغرفة ﴾

اما نحن النساء الاسيفات فقد كنا هياكل الجبن والخوف فاجتمعنا في غرفة مرتفعة خوفًا على انفسنا . واني لا انسى مدى عمري ذلك اليوم الذي كنا فيه في حالة يأس وانقطاع كلي وما ظنك بمجلس لا يرى فيه الا ذرف الدموع وخفقان القلوب . وكانت حسرتي تزداد حين تفكري في امر تزويج بنتي و ينقطع قلبي اسفًا لحالة هذه المسكينة . واسفي على خسران آمالي . ياترى اية علة احدثت هذه النعاسة لي ولبنتي وبدلت الافراح بالاتراح . وكنت انظر نظر المتلهف الى رصفائي متيقنة

ان هذا الاجتماع لن يسمح الدهر بمثله مرة اخرى

ما اشبه حالنا بحال الاغنام التي يقدمها مسلمو الهند للقربان في عيد الاضحى من اعيادهم الملية وكنا ننتظر اولئك القصابين ليدخلوا غرفتنا ويقتلونا وكانت جدران الغرفة التي التجأنا اليها تكاد تشتعل من حرارة القيظ وغلت مرارتنا في احشائنا كغلي الحميم وضاقت نفوسنا من تصادم هذا الهواء الحبس وكدنا نهلك في معمعان الحرّ قبل وصول العدوّ . وكنت ارى بعض الخواتين المحترمات قد اشرفن على الهلاك ترتعد فرائصهنّ من الدهشة والبعض الآخر جاثيات على ركبهنّ ناظرات في مستقبل الامور والبعض الآخر قد استولت عليهنّ الكآبة وتناوبتهن طوارئ الخوف بحيث هن بمجاهل سكارى وما هنّ بسكارى . ورأيت الفتيات نادبات على انفسهنّ يصغين الى الضوضاء في الخارج غارقات في لجج الخيال وقد وجبت القلوب ونضبت العيون . واصفرّت الالوان وارتجت الاركان

فمن مقلة شرقت بالدموع ومن وجنة غرقت بالدماء
وسافرة من قناع الحياء ونابذة صبرها بالعراء

اما انا فكنت مع جماعة من النساء نجلد نوهم اننا لا نكترث بمثل تلك القلاقل ونسلّي بعضنا بعضاً مع الوحشة التي اخذت مأخذها منا وكنت ضامّة ابني وبل الى صدري ضماً محبباً استعد لدفع الشرعنة واجد في نفسي قوة ضرغام قويّ يريد المحاماة عن شبله واقول اذا دخل الاشرار غرفتنا وارادوا قتل ابني لآخذ بهاتين اليدين الضعيفتين حلقومة اللطيف فاخنقه خنقاً يريحه من الوقوع في ايدي تلك الجماعة

اما غرفتنا فكانت مطلة من الشرق على الطريق المؤدّي من دهلي الى مرتهة وكان خطه الابيض ظاهراً وقد احدقت به الاشجار من جانبيه وهو ممتد مع البصر الى ان ينقطع . ويطل من الغرب على ابراج قلعة سليم غوري وسائر استحكامات القلاع الواقعة هناك وعلى قمة الجسر الممدود فوق نهر الجمنا وقباب القصور الشاهقة ومنارات السلاطين الكوركانية ومآذن المساجد العالية . ومن الشمال والجنوب تطل على القرى والحدائق والترع والحقول والمروج والغياض النضرة والغابات المتكاثفة وغير ذلك من المناظر الطبيعية . والنساء اللواتي كنّ رابطات الجاش قويات القلوب اجتمعن للنظر من نوافذ الغرفة الى الشرق وكنت فيهنّ فانقضت

ساعتان وما شاهدنا في تلك الضواحي ما يخدش وجه الادب او يخل بالنظام او يخالف القانون غير اننا نرى البريد (البوسطة) سائراً من دهلي الى ميرتهة بعجل وشاهدناه راجعاً من ذلك الخط ولما لاحظنا تردد البريد شرع وجيف قلوبنا بالانحطاط وتصوّرنا الطغاة انهزموا في ميرتهة والبريد لا يقطع الطريق بالعجلة الاّ لتبليغ البشارة واعلام القوّاد بها - لان السردار الانكليزي الذي في ميرتهة من شجعان الامراء الحربية وآثار بسالته وكفايته مشهورة فلا يتأتى للاشرار مقاومته . وخيل لنا انه سينال الظفر - وكأننا به قد اخمد نار الشغب . فما كان املنا هذا الاّ كذباً تلألأ وانطفأ لاننا سمعنا اثناء هذه المذاكرة صوت الابواق والطبول من طرف نهر جمنا مع ان الريح كانت تهب على خلاف الجهة التي نحن فيها ولكن الصوت كان يقرب منا شيئاً فشيئاً ثم سمعنا ترنم الموسيقى العسكرية فما لبث الحال على ذلك اكثر من ربع ساعة واذا بفرقة عظيمة من مشاة العساكر وفرسانها يقودها الجنرال كراو قادمة لاستقبال العدوّ ومعها بطريتان من المدافع والانغام الموسيقية امامهم تجدد قوتهم وتهيج احساساتهم ولما بلغوا محاذاة بيتنا جددوا نشاطنا باصواتهم المرتفعة قائلين « فلتحي دولة انكلترة الفخيمة » وظلوا سائرين

ولما قرع هذا الكلام الوطني المهيج باب آذاننا نزلنا من الغرفة نريد السرور على خلاف اوامر ازواجنا واجتمعنا في ساحة الدار نسأل لهم الفوز والظفر ونفاءلنا باقبالهم وحسنت ظنوننا في حقهم وقلنا هؤلاء العساكر في حالتهم هذه وان كانوا ما وصلوا تجاه الاعداء وما شرعوا بالمقابلة والمقاتلة لكن علامات النجاح تلوح على صفحات راياتهم ووجنات الويتهم . ثم اجتمعت الخدمة والسادة والعبيد وهم اكثر من خمسين نفراً وتراصوا امام الباب على طول الطريق بقلب جريء وخاطر قويّ ينتظرون خبر الغلبة والفتح وفيما نحن في ذلك الانتظار فاذا بغبار ساطع ملأ عرض الافق وهو يقصدنا ويقرب منا فلما انصرح الامر وسكت الرهج اسفر الغبار عن العساكر الانكليزية وهم تارةً يستقبلون الاشرار بهيئة مجتمعة ويدفعونهم باطلاق المدافع واخرى ينهزمون لغلبتهم

والفرق التي تحت قيادة الجنرال كراو عبارة عن الفرقة ٣٨ والفرقة ٥٤ والفرقة ٧٤ من مشاة العساكر الهندية مع عدة من الانكليز . ولما قابلت تلك العصابة الخافقة

العصاة ولاقتها في ميدان الحرب تركت الجنرال كراو وانضمت الى الوطنيين وبقي ذلك القائد مع نفر قليل من خواص ضباطه واشتبك القتال بينه وبينهم وحمي وطيس الحرب وما زال الجنرال يقاتلهم راجعاً الى دهلي بطور الكر والفر حتى اصبح على مقربة من دارنا وتوقف وكان هناك تلّ صغير اتخذه استحكاماً حربياً وشرع في مقاتلتهم باطلاق المدافع فاستولت غيوم الدخان على خط تلك الحدود واسلمت على ارض القتال ستائر دموية . والشجاعة التي اظهرها الجنرال امام دارنا زادت الطين بلة وصارت علة لرحيلنا فاحاطت بنا دواعي المحنة لان الاشرار لما شاهدوا انسداد الطريق تحركوا نحو اليمين فهلك منهم جمع كبير من قنابل المدافع التي اطلقت متوالية من ذروة التل لكنهم تركوا قتلاهم صرعى وقصدوا دارنا فالتجأنا وقتئذ الى الغرفة التي كنا فيها وارتفعت الضوضاء وخشنت الاصوات وخرق دوي المدافع حجاب آذاننا ولا تعجيج النوائح واغبرت الدنيا في اعيننا . ما الذي يصيبنا يا ترى . هل نجد وسيلة للفرار من هذه الورطة . هل يجوز التوقف هناك ولكون نفوسنا عرضة القتل واجسامنا هدفاً لسهام الفتك والشهوات الباطلة . ام هل يجوز لنا الاغترار لنطمئن من الهلاك بالانتظار

وياحبذا لو كان وليام حاضراً هنا حيث قامت الحرب على ساق وقدم ليشاهد زوجته الآن . ليت شعري اين هو . لماذا تأخر عنا في هذا الوقت . اظنه مأموراً بحراسة المهمات والذخائر الحربية ولو امكنه الخلاص لاستعار اجنحة للوصول الينا والا فكيف يصبر ويتركنا في لجج الخطر ان هذا بعيد عن احساساته . ولو فرضنا انه اعرض عنا فهلا يحضر للمحافظة على زوجته في هذا اليوم المهول . اما الرجال فاستعدوا للنزال والبنادق على اكتافهم والمسدسات في ايديهم وتهيأوا للذب عن شرفهم واعراضهم فبينما نحن في حالتنا هذه رأينا رجلاً هندياً يخترق صفوف الثورة وبعاصفها يقصد دارنا فما زال المقر معاركها حتى دخل الدار وصاح اين صاحب الدار فاروى زوجي فاخرج من كمه رسالة صغيرة دفعها اليه ورجع ففضها فقرأنا فيها ما يأتي « مادامت الطرق منسدة بسبب مقاتلة الجنرال كراو مع الطغاة فاغتنموا الفرصة وادخلوا المدينة من طريق الجسر ومتى دخلتم اطوفي بأمنكم اما انا فلا يمكني المجيء اليكم الآن لقيامي على حراسة الذخائر الحربية في مخزن الاسلحة وهنا هو

السبب الذي اوجب انقطاعي عنكم . اخط هذه الاحرف وانا في غاية التشويش من جهاتكم . بلغوا العروس زوجتي العزيزة سلامي وقولوا لها تشددي وكوني ثابتة الجاش معتمدة على الله والافاقة قريبة واملي ان تكون حالتنا جيدة ان شاء الله »

(وليام هود)

فحلّ السرور في قلوبنا وقتياً وحصل لنا انشراح صدر واخذنا نفكر في تعاطي اسباب الخلاص وانتهاز الفرصة وقد رأينا التأخير شديد الخطر ورفع عندئذٍ كران القسيس رأسه الى السماء وبسط يديه الى الله متضرعاً ثم قال « ايها الاخوان وايتها الاخوات لا ملجأ لنا الا الله والتجئ اليه وهو الذي يحفظنا في كنف حمايته وحوزة حراسته تضرعوا اليه فانه لا خافض لما رفعه ولا مفرق لما جمعه » . فبسطت الايدي الى الله وخشعت الاصوات ولما اجبنا دعوة كران عزمنا على الفرار . اما زوجي فانفرد برأيه يريد التوقف مؤملاً ان الاشرار اذا بلغوا اسوار المدينة يجدون ابوابها مغلقة واسباب التحصن والدفاع موجودة فيتفرقون ايدي سبا ولا يمكثون في ميدان القتال وكان يقول لخدامنا المخبرين عن ساعد الدفاع ان الاشرار اذا قصدوا الدخول الى دارنا فلا تمنعوهم واتركوهم وداري هذه فاني اريد رعاية مجروحيهم . وحقيقة القول ان قول زوجي كان ناشئاً عن الانصاف الا ان تلك الانسانية لا تنفع الآن وقد اضطرمت نار الحرب وتطايرت شعلها . واخذ الجدال امام دارنا اشكالاً حربية وانخفضت فيه الكبائش وازهقت الارواح . فصار ذلك التصادم والتهاجم سبباً بان الاشرار انحدروا الى دارنا انحدار السيل الماء واحاطوا بها من كل الجهات وهم يصيحون ويقولون « الآن ننتقم من كفار الافرنج وفجار الانكليز الذين تسلطوا علينا ونقتلهم جميعاً »

الفصل السابع

﴿ الفرار والثورة ﴾

فالتفتنا حيث تبطحت سيول البلايا فاذا الملاج قد انحصر في الفرار ولكن

شاهدت زوجي متردداً فسقطت على رجليه وانحنيت منه قائلة « قد استفحل الخطب بالله عليك ان ترفق باولادك وتنجنا من هذه التهلكة التي ماجت فيها امواج المنايا ووافقني على الفرار فقد التقت أكبادنا خوفاً » فاثرت كلماتي فيه واخذنا في تدارك الفرار واخذت انا مع بنتي شيئاً من النقود ومن الاحجار الكريمة ما كان اعلى قيمة واخف وزناً وخرجنا من البيت ووجدنا هنا ثلاثة افراس مسرجة فركبناها وتوجهنا نحو دهلي بلا توانٍ ولا اهمال

قد يفكر قراء قصتي اذا وصلوا الى هنا في خدامنا المطيعين هل انتقلوا معنا في السفر ام لا فاقول اننا ما وجدنا فيهم من يوفي بعهده الاّ رجلاً وامرأة وكان ما ابدوه لنا من الود والولاء عبارةً عن مكرٍ وخديعة وتملقٍ وصنيعة. اما الرجل فاسمه محمد الفيلبان (الفيلبان الذي يقوم بخدمة الفيل ويعلفه) اخرج الفيل من مربطه ووضع الهودج على ظهره وحمل عليه بعض الادوات واستوى فوقها وسار يتبع اثرنا. اما المرأة وهي مربية ابني وبل ارضعته من الطفولية وربته في حجرها فقمصت وبل الى صدرها وتبعتنا اما زوجي وانا فكانا امامي بركضان الفرس فاخذت وبل من الهندية واوصيتها بالجلوس في هودج الفيل واقعدته على حجري وكان فرسي جواد الخيل فركضته حتى تبعتها . هذه خريطة فرارنا وما ادراك ما الفرار واياً يوم شديد ابتلينا به لا يلي الله عبداً من عبيده

ولما وصلنا الى الجسر التفت ورائي فوجدت دارنا قد لعبت بها النار وتناثرت سقوفها وتصاعد الدخان فوقها فقصعت عن غير اختيار فوقف حينئذٍ زوجي وبنتي وعاينا احتراق بيتنا الذي كان محلاً لعيشنا وسعادتنا ومحطاً لرحال ثروتنا فترحمت على هذا خسراننا وانخلعت قلوبنا من الحزن والاسف حيث صارت اموالنا نهباً منهوباً واعلاقنا سلباً مسلوباً . كانت الساحات غاصة بالوف مؤلفة واخلاط الناس والعامة أكثر من ان يحصى عددهم وقد اصطفوا من طرفي الجسر فما مضت على وصولنا برهة حتى وصل الينا بعض الجرحى الذين فروا من مقابلة الاشرار وقالوا ان الجنرال كراو انهزم انهزاماً رديئاً ويلحق بنا - ولما شاع هذا الخبر وتحققت هزيمة الجنرال تطاولت الرقاب - واستاسدت الذئاب - فاظهر الهنود وقاحتهم ونابذوا بقضاهم على السنتهم البذيئة وشرعوا يهددوننا بعبارات خشنة كأنها جمرٌ تنوي الاحراق . على ان سكنة المدعوما

وقطان دهلي خصوصاً في ايام السلم والصلح اناس كانوا ذوي طباع لينة واكتاف موطأة جانحين الى الهدو والراحة اذا لاقوا واحداً منا خفضوا جناحهم ووقفوا في الطرق احتراماً وتوقيراً يقابلونه بوجوه طلقة تنبيء عن كمال المجلة والتعظيم . اما في هذا الوقت فصار هشيم نباتهم مخضراً وصارت ارانبهم اسوداً وارانبهم شجعاناً رفعوا رايات الانتقام والوية المكافأة . والاخادع المعوجة والقدود التي عراها الانحناء منذ حقب وسنين اصبحت اليوم منتصبة كالرماح السمهريات زال عنها ذلك الاعوجاج الطارئ . وقد حدقوا انظارهم ينظرون الينا باعين خزر يغمزون منا غيظاً و يلهبون علينا عداوة . وظني انه قد ارتسمت في الواح صدورهم كلمات منها قولهم « هذه مملكة الهند التي ورثناها من اسلافنا واحداً بعد واحد وكابراً بعد كابر وانتم الاجانب قد دخلتم دارنا وملكتم حقوقنا و باي قانون اطلقتم ايدي الجور في املاكنا ومنعتمونا من الانتفاع بخيرات وطننا العزيز وتنعمتم في رياضها الخصبة وكرعتم من مياهها العذبة . الى متى تسوموننا الخسف والجور والحيف تفتحون علينا ابواب العسف والظلم » ومجمل القول ان امارات التعصب كانت بادية على وجوههم ظاهرة من اعينهم نعوذ بالله لو فرط منا في هذا الوقت فعل فيه كبر وخيلاء فانا مقتولون لا محالة

فوا اسفي على فوات الفرصة ويا ليتني ارتكبت فعلاً عقابه الحمام ليقتلوني هنا حتى لا ارى الذي رأيته من الدواهي السود فيما بعد . وخلاصة القول اننا عبرنا الجسر حتى وصلنا الى طريق المدينة الموسوم بطريق كلكوتا فوجدنا المسالك امتلأت بالجماهير المحتشدة وضاقت بجمع كثير لا يمكن حسابه فمنعنا الازدحام من الدخول ووجدنا خيولنا الذين فروا من دارنا متوقفين هنا في حالة يرثى لها ولما شاهدونا اشاروا الينا بالترحل وقالوا : هؤلاء هم الاشرار الذين تسلط التعصب على قلوبهم وربوا ضغائنهم في صدورهم على مر الدهور وهم لا يجدون فرصة اما الآن وقد صحوا من كرى الهموم واحيوا استعادة مجدهم الدائر ووجدونا مقهورين اذلاء . فاذا ظفروا بنا قتلونا لا محالة وجعلونا عرضة للبليات فلتختف عن انظارهم » فنزلنا عن الافراس وتوارينا في الجماعات

فبينما نحن نخترق تيار الهياج واذا بالجلبة والضوضاء ارتفعتا من ناحية المحلة التي تسكنها حكومة الانكليز واختلطت اصوات الطغاة بهذه الكلمات « علينا ان نقتل الانكليز باسرهم » فظهر ان فرقة من العصاة هجموا على دار الحكومة وقصدوا نهب ما فيها وكان

الفضاء قد امتلأ بالأصوات المهيبة وكادت ارواحنا تفارق الابدان من هول هذا المشهد الوخيم

ما انقضت على ذلك دقيقة او دقيقتان واذا بواقعة فجيعة داهمتنا وذلك ان الاشرار حملوا على رجل من معارف انكلترة كان واقفاً هناك على فرسه فجروه من مركبه بعد ان اكثروا عليه من الشتم والتقريع واقبلوا يهرعون اليه من كل جانب فاعتوروه بالسيوف والعصي وضربوه ضرباً مبرحاً حتى فارق الحياة او كاد . ثم جروه والقوه في خندق مملوء بالوحل والكثافات فقضى نحبه فشكرنا الله على ترك مراكبنا وعلى ان الشمس جنحت للغروب واخذت اشعتها المحزنة بالزوال . وكان الفيل امامنا يخطو كأنه احمق الخبثاء يزهو بخرطومه ويخالل الجماعات ونحن نقطع الطريق من خلفه على غير وحشة وقد استوى محمد الفيلبان على عنقه ودلى رجليه الى الجانبين وشد على رأسه عمامة خضراء ولذلك كان الاهالي لا يتعرضون له وهو يرماونا من شر ورم وكنا اوصيناه ان يقصد منزل تاجر افرنجي كان من قدماء احبائنا ومحمد يحدو بالفيل ولا يلتفت الينا ابداً لئلا يطلع الاشرار علينا . وعزمت مراراً ان ادع ابني ويل على داجه ليستريح في الهودج اما هو فعلق يديه الصغيرتين بعنقي وضم نفسه بنفسي وآلى ان لا يفارقني ابداً .

وكيف يسوغ لام حنونة ربت ابنها بالشفقة والحنو ان تفارق ولدها جبراً لا والله اني لا افارقه ولا اقطع علاقته اللطيفة من عنقي ما دمت في قيد الحياة . ولا اريد الخلاص من سلسلة محبته . وما زلنا نجري ملجاً والثورة تشتد حيناً بعد حين واذا بالجنود اشعلوا عدة مشاعل مزقوا بها جلباب الظلام فاعادت الليل كالنهار وارتنا الوجوه السود والعمائم البيض من الاهالي وكانت اصوات اللعن علينا مرتفعة من افواههم . حتى وصلنا الى قلعة سليم غوري فشاهدنا فيها فرقة مدفعية قد ملأوا المدافع وبايديهم الذبالة المشعلة ينتظرون أمر رئيسهم لاطلاقها على الفئة الباغية فما اتصلت الاشرار بهذه الفرقة الا وطرحوا السلاح والقوا الذبالات في الخندق واخذوا الجهات الدارية وانحدروا مع ابناء وطنهم وصاروا يطلقون المدافع في تلك الليلة الليلاء على الانكليز فزادهذا الاسف على اسفنا وكانت المخاطر تتكاثر والاعداء تتقاطر . اما الاشرار فلما عاينوا هذه المساعدة الوطنية صفقوا طرباً وطفقوا يمدحونهم فاوثقوا رابطة الولاء واتفقوا معهم

الفصل الثامن

﴿ في شوارع دهلي ﴾

ونحن لم ندخل حتى الآن في المحلات الاصلية بل كنا نقطع الطريق في خارجها وياحبذا لو وجد الفيلدان في الصبر واهتم في خرق الصفوف لانا لو دخلنا المحلات المحترمة امنا من مقاساة الشدائد. لان مدينة دهلي من اعظم مدن هندستان واهمها مكاناً لا نظير لها في حصانة حصارها وقد بُنيت بالمعالم المتقنة بمعارف المهندسين وجعلتها دولة انكلتره مركزاً عظيماً للعدد والسلاح والذخائر الحربية فهي امنع المعاقل وامن المئامن والغرباء أن يتحصنوا فيها عند وقوع الثورات . تقدمنا بضع اقدام حتى قربنا من الدخول فصادف وصولنا مزدحماً عظيماً من الاوباش ورعاع الناس وقد عزموا على الخروج من المدينة بهيئة اجتماعية واتلفنا بهم كحزمة حشيش القيت في البحر تتناذفها الامواج من مكان الى مكان فلا تلبث أن تتبدد وتتلاشى

كريشة في مهب الريح طائرة   لا تستقر على حال من القلق

فارجعونا القهقرى وقد صمت آذاننا من دوي المدافع والبنادق وكثرة الجلبة والصياح المحيط بنا من الامام والخلف واليمين والشمال التي كادت تشق طولها الجيوب ومن سعادتنا اننا شاهدنا جمعاً يدخل وآخر يخرج بحربة معينة فاتصلنا بالداخلين فدخلنا المدينة معهم وما زلنا نمشي بهذه الحركة القسرية الى ان وقفنا بساحة ميدان امام مستودع البارود فوقف الجميع وعلمنا ان الذين دخلنا معهم منهزمو عساكر انكلترة الذين كانوا تحت قيادة الجنرال كراو - انهزموا وفروا مذعورين فلم يكن الا كلمح البصر حتى وصل الجنرال المذكور وامر برفع الجسر خوفاً من دخول عصاة ميرتهة وتعاضدهم على تقوية الهياج والثورة فما اتم كلامه حتى اقبل الاشرار وتجاوزوا الجسر وهم يسفنون كخيل الطراد فملكوا الجسر وتصرفوا في الدرب الكبير من مدينة دهلي فتحقق عندنا تحققاً حتمياً ان هؤلاء الاشرار القليلي الترحم والحياء اذا استولوا على هذه العاصمة القديمة والقاعدة العظيمة واقتدروا على امتلاك الذخائر التي ادخرتها دولة انكلترة فيها فنحن مقتولون لا محالة

ولا اريد سرد تاريخ استيلاء الهنود على دهلي وايراد الحوادث التي اتفقت في اثناء ذلك اذ لا يسعني في هذه العجالة استيفاء كل الاخبار وهي خارجة عن موضوع قصتي وانما قصدي الوحيد الاصلي بيان ما صادفته من الصعوبات التي وهنت القوى وذهبت بالعين والاثر مع اظهار ما جرى عليّ وعلى زوجي واولادي وعشيرتي من النائبات السود في هذه الطامة الكبرى والداهية الماثلة . ان انكلترا ليست مولدي ولا محتدي ولا انا أحسب من هذه الملة اني فرنسوية وفرنسا مسقط رأسي لكني تزوجت بانكليزي على ما قدرته المقادير واعطاني الله من هذا الازدواج اولاداً فانا انكليزية بهذا الاعتبار . فلو انقرضت دولة انكلترا بتمامها في الهند وانمحت عن الكرة الارضية آثارها وصارت راياتها منكوسة وعساكرها مقتولة وتبدلت ثروتها بالفقر وسطوتها بالضعف فلا يهمني ذلك اذا ظلّت سعادتنا الماضية باقية وظل زوجي واولادي سالمين . والنساء اللواتي يطالعن قصتي ويطلعن على شرح غصتي وما قاسيته من المصائب يعلمن ان الموت احسن من حياة بهذه المرارة لان النساء ليس عندهن سعادة الذ من سلامة ازواجهن واولادهن . اما وا اسفاه فان عقيدة زوجي خالفت وتهدم بنيان مقاصدي فانه كان يقول « ان الرجل الذي يحب شرف وطنه ويود رعاية ناموسه ويلاحظ حماية دولته فعليه ان يقتحم لجة النزال فيقتل او يُقتل »

وخلاصة القول انا جاءنا الازدحام وما زلنا نخبط في الظلماء على اثر الدليل نؤم المنزل المقصود حتى تجاوزنا دار الحكومة ثم اخذنا نقطع الطريق من خلف كنيسة (سنت جمس) الشهيرة وانما اخترنا هذه المسافة البعيدة حذراً من العبور بمحاذاة ميدان اجتمعت فيه العساكر وما زلنا نداب في السير حتى وقفنا امام بيت التاجر الذي قصدناه من اول حركتنا فوجدنا ابوابه مغلقة ونوافذه مسدودة وقد عرا تلك الدار العامرة سكوت سائد وظلمة عميقة بحيث يخيل للرائي ان سكانها هاجروها منذ سنين وتركوها عرضة للحوادث . فقرع زوجي الباب فلم يجبه احد ثم قرعه ثانية بطرز خاص وما اجابنا احد . ليت شعري اين هذا الرفيق الشفيق والحبيب القديم . اين يا ترى هذا الذي عليه جل اتكالنا واعتمادنا . اهكذا تكون حقوق المودة والاخاء ان يتركنا في ورطة البلايا ويستريح بنفسه وما السبب الذي اوجب اختفاءه ثم

ان كان كذلك فبأي حبيب يُعتضد و باي عهد يُعتقد . فنزل البلبان عن ظهر الفيل وطفق يدور حول الدار و يتأمل جدرانها فما وجد اثرًا يستدل به على وجود انسان فيها . ولما رأى زوجي ذلك قرع الباب مرة ثالثة قرعًا عنيفًا تزلزلت له اركانها فانفتحت على اثر ذلك نافذة من غرفة واخرجت عجوز رأسها منها وقالت « ان كنتم تريدون رب البيت فاعلموا انهُ تقلد سلاحهُ مع ابنائهِ واتباعهِ وذهب الى مجتمع ضباط الكنتق في برج الميعاد اما زوجتهُ و بناتهُ فارسلهن الى محلة زبكم خمرين اوفي احدى منزيات وتجيبانها لكن تحت حمايتها » . ثم قالت بعد ذلك عجّلوا في العبور من حوالي هذه الدار واقصدوا مأمنًا آخر ان الطغاة سيهجمون تلك الليلة عليها لاشتهارها بالثورة والغناء . ولما تم الكلام اغلقت النافذة وغابت عن اعيننا وتركتنا حيارى في وسط الشارع

كان زوجي كما سبقت الاشارة يريد ان يتفق مع ابناء وطنهِ ويتحد في الدفاع لكن حالة زوجتهِ واولادهِ كانت تمنعهُ عن الاقدام بمقصودهِ وهل يتسنى لاحد ان يترك زوجتهُ وابنهُ وبنتهُ بين اخطار المنية في وسط الطريق في تلك الليلة الداجية ويذهب ولو كانت وكانيا عندنا حينئذٍ لامكنا الوصول الى طريق كتيبر والحوق بعساكر الجنرال كراي اما الآن فلا تبلغ هذا المأمن الموعود الا في ساعة ونصف لبعد المسافة عنا والصياح المرتفع يثبت لنا ان الغلبة للاشرار والخذلان للانكليز وكانت آكي من ساعة فرارنا من بيتنا ما تكلمت بكلمة لانها تتفكر في امر زوجها وتقضي وقتها بذكرهِ وكاني بها تركت جسمها لنا واودعت قلبها عندهُ ويلمام ولما رأت ارتباك امرنا وتضارب رأينا صاحت قائلة « لماذا نكثون في المسالك بين المخاطران مخزن الاسلحة نقطة مهمة حصينة فعلينا ان نقصدها لنكون آمنين » هل يشتبه عليَّ غرض بنتي كلا اني اعرف انها انما تريد بذلك ان تصل زوجها وتكون مأمونة عندهُ حيث كان مأمورًا بحراسة المهمات الحربية في هذا المخزن ففرح زوجي وقتئذٍ وقال صدقت آكي في قولها واظنها مصيبة الرأي انا لو وصلنا مخزن الاسلحة ما طرأت علينا نائبة فيهِ لاجتماع الافرنجيين هناك فصوبت رأيها وقصدنا الطريق فلم نكد نسير قليلاً حتى واذا كارث البلايا اقعدنا عن التقدم وقطع علينا السبيل

ظهرت من خلفنا فرقة عسكرية طاغية مع مشاعل وهم يعدون عدواً سريعاً ويدعون سلطانهم فاستقبلتها فئة عظيمة من الاشرار يحرض بعضهم بعضاً على قتل الافرنج ونهب اموالهم . ومن سعادة جدنا ان الليل كان وقاية لنا من الابتلاء بالصدمات لاننا كاننا في خلفة ولولاه لهلكنا عند القضاء . الغنيين فحجز بيننا وبينها وعمار حائلاً بجنبه . وما زلنا نكابد الاخطار حتى وجدنا باباً عالي البناء فدخلنا تحت طاقة من طاقاته واختفينا فيها وتلاقت الفئتان فما اطلعنا علينا . وثبت عندنا ثبوتاً حقيقياً أن الثورة ستشتد وتعظم وانه تجري سوابق الفتن في مضمارها وتشكل وجوه الخلاص منها . ولما شاهدنا رجال الفرقتين الرابعة والسبعين والعشرين قد نصبوا رؤوس قوادهم الانكليز على اسنة بنادقهم وقد خلا الطريق قصدنا المخزن وزوجي امامي يمشي قابضاً على عضد آلن . واما وبل فكان في حجري وقد اخذه النوم وانا امشي من خلفها والداية ترافقني ونحن نرتعد كاوراق الخريف من خوف ما عايناه وما زلنا نمشي حتى مررنا بجانب جدران خربة محيطة بحديقة الدولة الانكليزية واذا بخطب فادح آخر الفينا به وافضت حالتنا به الى قلق واضطراب عظيمين وذلك ان الجامع المخصوص للمسلمين كان في آخر الطريق وشاهدنا العساكر يريدون الدخول بهذه الحلة ومع انهم يقتلون غالباً فهم يصرون على الدخول بهجمات شديدة فوضح لنا ان فرقة من عساكر الانكليز اتخذوا دهليز الجامع استحكاماً حربياً لمنع الطغاة من الورود من هذا المقام . فصار ذلك علة للتباحث والتضارب بين الفريقين واتفقوا على انتزاع الجامع من ايدي الانكليز وابرموا امر المقاتلة

وكانت المساكن حول المسجد في حالة الاحتراق وكنا نرى الهنود بهيئات عجيبة وصور مهيبة مشوهة يجولون في البيوت ويثبون من مكان الى مكان يأخذون الاخشاب المشتعلة ويلقونها في البيوت لتعميم الحريق . كانت العمارات والابنية المتعلقة بسلاطين دهلي في الجهة الشرقية والريح تهب حينئذ من تلك الجهة فارادوا احراق بيوت الافرنج واوقدوا النار في واحد منها فاشتد هبوب الريح شيئاً فشيئاً واضطرم لهيب النار وتدرجت الشعلة فاحرقت الدور والتهمت تلك المباني الباذخة بتمامها وسلمت مساكن الكوركانيين من شرار الحريق . وفي اثناء ذلك هجموا وازدحموا وتسابقوا ووقعنا بين هؤلاء المتعصبين وهم متفقو الكلمة يصيحون أن الدمار والبوار

للانكليز . ومن الاتفاقات الحسنة اننا رأينا في اليمين شبحاً لبيت من البيوت فقصدنا ذلك البيت مع علمنا ان الاشرار وردوهُ وشنوا الغارة عليهِ وهم مشتغلون فيهِ الى الآن ولما وصلناهُ وجدنا دهليزاً وسيعاً محفوظاً لاشتداد الظلام عليهِ فرأينا الاختفاء فيهِ نعمة عظيمة لوقاية حياتنا . اما الفيلبان فانهُ رافقنا الى ابتداء الغابة لكنهُ ما قدر على خرق الصفوف فاضطر للعود من طريق آخر وكان ويل في حجري غريقاً في النوم فهب من نومهِ مذعوراً وشرع في العويل والبكاء وعلا صوتهُ فعلمت ان الاشرار الذين في داخل البيت وخارجهِ سيطلعون بدلالة الصوت على مكاننا فكنت الاطفهُ واقبلهُ وهو لا يسكت ويستمر في عويلهِ . وهل يعلم الطفل الصغير في اي حال نحن

الفصل التاسع

﴿ السرداب المهول ﴾

والدار التي التجأنا الى دهليزها لرجل متمول انكليزي لا اعلم هل فرَّ منها في اول الثورة مع اهل بيتهِ ام وقع في مخالب الموت . اما الجنود فكانوا يعدون في الغرف الفوقانية ويجسون الحجرات كالمجانين يصوتون بصوت القرود والسنانير ويثبون من نافذة الى اخرى يكسرون الآنية الثمينة ويفرغون قوارير العطريات في الارض ويحرقون الوسائد المزركشة ويمزقون تضايد الديباج وستور الحرير . فلما فرغوا من اعمالهم جمعوا حزم الحطب والعيدان في ساحة الدار ككل صغير كأنهم يعزمون على احراق اميائهم كما هو من عوائدهم المذهبية

ثم شرعوا يتفحصون المراتب التحتانية ومضايق البيت ونحن نسمع اصواتهم الشبيهة باصوات الكلاب التي تعاقب الصيد وتحثهُ فاذا بلغت اليهِ اولجت انيابها في اعضاء ذلك الحيوان وصاحت بصوت ينبئ عن شغفها وسرورها . وهؤلاء الاشرار كانت ترتفع اصواتهم كل بضع دقائق ثم تتبع ذلك الصوت المنبئ عن الفرح والنشاط انة فجيعة توضح لنا ان الانين من المقهر وبين وصوت النشاط من الضاربين

لم يلتفت الينا احد من الاشرار الى هذا الوقت لاحاطة الظلمة بالدهليز وعند ذلك داخلنا رعب شديد مخافة انهم اذا انتبهوا علينا واراد وا الخروج من الدار تجسسوا الدهليز فيسفكون دماءنا ويفضي امرنا الى ما لا تحمد عقباه . فتوكلنا على الله ووردنا ساحة البيت وقلوبنا واجفة مما سنلقاه من المناظر المكربة فاختفينا في زاوية احاطت بها اشجار كثيرة ونبات اثيث ولما قرَّ بنا القرار وجدنا في الجدار نافذة مطلة على سرداب وبعد هنيهة ارتفعت من هذا المنفذ صيحات شديدة واصوات هائلة واطلقت عدة رصاصات متوالية . ثم استنار بعض السرداب فتفرسنا فيه فشاهدنا جماعة من الافرنج وقعوا في مخالب انتقام اولئك السفاكين واملوا في فورهم . استمرت الجلبة خمس دقائق ثم انطفأ السراج . وغلبت على السرداب ظلمة وبعد هنيهة شاهدنا الاشرار يقبضون على رجل طويل القامة يجرونه من السرداب ولما وصل وسط الساحة اوقدوا النار في تلك العيدان المجتمعة هناك وقربوا ذلك الرجل منها فخيل لنا ان الطغاة ينالونه اولاً ثم يطرحونه في هذه النار الموقدة لكنهم اقدموا على امر فظيع ارتجفت ابداننا من معاينته وطارت له انفسنا شعاعاً وذلك انهم القوه في النار وسلوا سيوفهم وصوّبوا نحوه مسدساتهم واحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فهاجت النار واضطربت اضطراباً شديداً وفاح القتار . اما ذلك الرجل التعيس فكان يريد الخلاص وهم يمنعونه بأسنة بنادقهم وظبات سيوفهم ويرجعون اليه بضرب المقارع المؤلمة ويجيبونه بالاجوبة المقذعة ويرمونه باللعنات والشتائم

واني اتعجب من ثبات هذا الرجل الغيور وشهامته فانه عزم على الفرار ثلاث مرات حفظاً لحياته فلما استحوذ عليه القنوط واليأس جلس في وسط اللهيب من غير ان يلتفت الى الاشرار ثم بسط يديه الى السماء واشتغل بالدعاء حتى اكلته النار واحترق فصار رماداً وحال الدخان بيننا وبينهم . ولا تسل عما ألمَّ بنا من الرعب بين يدي ذلك المشهد المهول الذي نرى فيه الدواهي سود المناظر والمنايا حمر الاظافر . فربطت فمي بمنديل خوفاً من ان اصيح من هول هذا المنظر الذي ينفطر منه الجماد وتنفطر له الاكباد . هذا واستدللنا من قرائن الوقائع وفحاوي مطالبهم ان ذلك الرجل الذي احرقوه احد نجباء انكلترة ومشاهيرها وانه قاضي قضاة محكمة دهلي وأوده وانه هو الذي انتظمت نظامات انكلترة وقوانينها في ممالك الهند بمساعيه

وشاعت بافقاده ولهذا السبب قتلوه بهذا العذاب الاليم . ولما احترق القاضي
شرعوا بالانتشار رويداً رويداً وتركوا الدار خالية من شرورهم . اما نحن فكنا
متحيرين في امرنا الى ابن نلتجئ وهل من دليل يوصلنا الى برج الميعاد لنتصل
بابناء وطننا واذا اردنا المرور من هذا الطريق فان طريقنا من امام الجامع
والاشرار هاجمون لاستخلاصه من ايدي الانكليز فاجتماعهم يمنعنا من العبور
فقال زوجي قد تخامص الليل وارى ان نتوقف هنا الى وصول النيلبان وما
تأخرنا حينئذٍ الا لتواتر الهجمات وتوالي الثورات اما الآن وقد خلت المحلة
وارتفعت الموانع مجدنا . على ان بقاءنا في محل الاستتار اقرب لصحتنا

فتدبرت رأيه فوجدته مصيباً لان الجنود اذا احرقوا ذلك البيت وقتلوا
ساكنيه لايعودون اليه وعزمنا على التوقف ريثما يسكن الهياج وترتفع سورته .
وليالي هندستان على خلاف ايامها فانها تكون في غاية البرودة وقد كنا اصطلي بقايا
تلك النار التي احرقت القاضي ثم التجأنا الى مكان يقينا من سطوة البرد فقال زوجي
اسلم الطرق ان ندخل احدى هذه الغرف فمشى واخذ ابني في اثره فصعدنا من
درج خشبية مشرفة على سطح غرفة وسيعة فوجدنا الحجرات مبنية على نمط واحد
وقد اتصلت الطرق من هذه الى هذه تسهيلاً في الدخول والخروج . ولما شاهدناها
خالية ورأينا الاغلاق متكسرة لان الاشرار حملوا النفائس الثمينة واحرقوا ماوجدوه
ثقيلاً غير لائق بالنقل مازلنا نخمص فيها حتى وصلنا الى حجرة صغيرة خلف تلك
الحجرات فوجدت هناك اسرة وبسطاً ووسادة فحملتها وانمت طفلي وبل فيها وقبلت
وجهه وسألت الله جل وعلا ان يحفظه من الآفات واوصيت الداية ان تحرسه

ثم خرجت مع بنتي وزوجي وبحثنا عن شمعة فوجدنا بقية منها فدخلت بها
في السرداب الذي أخرجوا منه القاضي المقتول وقد كنا نسمع اثناء
ذلك الانين الجرحى وحشرجة المائتين فحتمنا على انفسنا ان ندخل هذا المقام
ونفتش فيه عسانا ان نفوز بانقاذ الذين بقيت فيهم حشاشة من هؤلاء التعساء . وخلاصة
القول انا نزلنا السرداب فدسنا على اوحال لزجة زلقت عليها اقدامنا ونحن لا نعلم
هل هي اوحال الدماء السائلة ام هي من الخمور التي انكسرت دنانها . فاستعنت
بالجدار في المشي فاحسست فيه ايضاً رطوبة غليظة فقربت الشمعة من يدي فرأيتها

ملطخة بالدم وعلمت ان رطوبة سطح السرداب من الدماء الجارية · فما تقدمنا في تلك الدرجة المائلة ثلاث اقدام الا وتورطنا بين اعاز تباع ودماء نساح · وجوارح متقطوعة واشلاء منهوكة · وعاينا في بعض الاركان جماعة من النسوان ذاهبات القلوب يعالجن سكرات الموت وقد فتك الاشرار بهن فتكاً ذريعاً وزعوا اجهاض و رعتهن وجرت الدماء كالسيول على المابلة ورأينا في ركن آخر رؤوساً مدحرجة وجثثاً بلا رؤوس متراكمة بعضها فوق بعض فما وجد هؤلاء الاراذل في ذلك المكان الذي هو قرارة المعايب ومجمع المثالب طريقاً للقتل الا سلكوه ولا باباً للفظائع الشنيعة الا فتحوه · ولقد شاهدنا ما تشمئز منه القلوب القاسية وتضيق من حكايته الصدور الواسعة

فيا لفظاعة الخطب ويا قبح تلك الليلة الدهياء المشحونة بالمصايب والمكارب فلا يؤثر النظر على الجراح في الانسان · وهل الافئدة لا تتأثر من معاينة الجروح · فتقدمت انا وزوجي واخرجنا الاجساد التي فيها رمق من هذا المضيق لاسهل نزعها واحتضارها ثم رأينا بين القتلى امرأتين اصابتهما جراح قتالة بالنسبة الى الباقين ووجدت بنتي طفلاً سالماً فاخذ زوجي احدى الجريحتين في حجره ليذهب بها الى ساحة البيت حتى الدمها فلما اراد الصعود من الدرج صاحت تلك المجروحة صيحة خرجت من اعماق قلبها من شدة الالم فخاف زوجي من رجوع اولئك الرعاع السفلة على اثر الصوت لانهم كانوا مشتغلين في بيوت الاطراف بالفتك والنهب حتى الآن وخاف ان يكون لهم عيون او جواسيس فوضعها على الارض فارادت الضعيفة ان تقوم من غير معاونة فما قامت الا وسقطت على الارض من شدة الضعف

فدنوت منها لمعاونتها فاذا بها قد قطعت احدى يديها من الساعدين والدم يجري من محل القطع جرياً سريعاً · اما الطفل الذي وجدته آنفاً فلا يجاوز سنه اربعة او ثلاثة اعوام فلما رآنا نفحص قتلنا نريد بهم سوءاً فنفر منا مذعوراً واختفى بين اجساد القتلى فشرعت آلن تكلمه باللغة الانكليزية وكانت تلاطفه وتسليه حتى مال الينا وعرف انا نريد تخليصه فخرج من تحت الجثث ودنا منا والقى يديه في عنق بنتي وشرع يبكي ويقبلها فتجددت لي حالة رقة حتى دمعت عيناي · وفيما نحن في هذه الحالة واذا بصوت قاصف كهزيم الرعد اتانا من جهة الباب فعلمنا انه صوت الفيل وانت محمداً

وجدنا فاعترانا من مجيئهِ وقتئذ ارتياح تام وشغف باطني اذ تصوّرنا انهُ يتركنا ويذهل عنا فضلاً عن معاونته على خلاصنا

هذا الرجل الصديق الصافي السريرة من مسلمي الهند عاش في دارنا في عنفوان شبابهِ حتى ناهز عمره الاربعين ومع ان ابناء وطنهِ كانوا يصرّون على اراقة دمائنا ظل هو يخالفهم في ذلك ويرافقنا في السراء والضراء وفي حالتي الشدة والرخاء . وما زال الى ان نزل في سبيلنا كما سيأتي وخصلة هذه مما يذكر فيشكر لله دره من رجل وافٍ بعهوده ومواثيقه فانهُ اتم مراسم الوفاء وراعى شرائطهُ حق الرعاية في مواقف الخوف ومواطن الردى . وبعد ملاقاتنا حلف بالله ونبيه ان انقطاعه عنا ما كان الا لانسداد المحجة التي قطعت عليه السبل فما قدر على سوق الفيل حتى خلت المسالك فقدم على السرى فلما وصل بمحاذاة هذه الدار وقف فيها الفيل على عمد منا فيها . فاستعلمنا منهُ اخبار الثورة واحوال دهلي فقال . « حدث بين الفريقين معارك ووقائع مهولة كانت الدائرة فيها على الانكليز وتسلطت الجنود على دهلي بتمامها واختاروا سلطانها المقدم المتزوي بسلطنة الهند فتبوأ تخت الملك . وشنوا الغارة على مساكن الغربيين وقتلوا من وجدوا من اناث وذكور وشيوخ وشبان ووضيع وشريف فانصبت دماؤهم ادراج الرياح وقد حصل للاشرار تمام التسلط والنفوذ وحكموا كيفما حكمت اهواؤهم . اما العساكر المتحصنون في مخزن الاسلحة فخارت قواهم وانحلت عزائمهم فتبدد شملهم وتفرقوا هاربين وما في ايدي الانكليز من الاستحكامات الآن الا مستودع البارود (بارود خانه) فان بقية العساكر التجأوا اليه مع اعاظم قوادهم وضباطهم . ودرب كابل فيهِ ايضاً عصابة حافلة من الاجانب وقد تدججوا في شكتهم واستعدوا للنزال . اما الجنرال كراو فانهُ يقاتل الثائرين في هذا الجو وقد اجتمعت حولهُ جماعة كثيرة من الارامل والايتام والرجال والنسوان »

الفصل العاشر

﴿ اضطراب عظيم ﴾

فتزعزعت النسوان لسماع هذا الخبر واستطارت افئدتنا ارتياعاً ووقعنا في اضطراب

فصم ظهورنا ولا نعلم هل يجوز لنا الثبوت في هذا المقام ام خروجنا اولى وكان
محمد يقول اغتنموا ظلمة الليل وانتقلوا من هذه الورطة الوبيلة الى مأمن آخر فاني
لا اوافقكم على البقاء هنا . ولكن الى اين نذهب ان قصدنا دار الانكليز ألقينا نفوسنا
في التهلكة وان أقمنا في هذا المكان لا نأمن الابتلاء ببلية اخرى عند انبلاج الصبح
لقرب هذه الدار من مراكز العصاة والمساجد الاسلامية ولما شاهد البلبان اضطرابنا
فكر هنيهة وقال « لا تخافوا ولا تحزنوا اني ادلكم الى بيت أحد من احبائي وهو مخدومي
في الطريقة والمذهب على انه رجل طيب العريكة صافي النية لا يخالج قلبه الا المصافاة
ولا بأس بهؤلاء الجماعة الذين هاجوا الفتن . لكني اخاف ان تهيجه العصبية فلا يقبلكم
متابعةً لابناء وطنه وتقليداً لهم . واما اذا دخلتم داره من غير اعلام واطلاع
فتجدونها كمعقل حصين لكم . وقد حنكتني التجارب واني اعرف منكم بابناء وطني فانهم
اذا التجأ اليهم ملهوف بالاقونة بوجوه مستبشرة ويرحبون به ويعدون احترامه والتلطف
به من شرائط المروءة ودعائم الايمان ويتغاضون عن التعصب الملي والتباين الديني
ولا يعبأون باختلاف المذاهب وتنافر المشارب ولا يبخلون ببذل النفوس في سبيل
انقاذه من ورطة التعاسة والخلاصة انهم اذا اجاروا مستجيراً ابوا حمايته ما دام ذلك
في امكانهم وهو في بيتهم شريف القدر الى ان يخرج منه والاولى ان نبرح مقامنا هذا
ونقصد ذلك الرجل واعلم علماً يقيناً لا يشوبه شك انه متفق الآن مع رفقائه المسلمين
في القتال وهذا من سعادتكم »

فتأمل زوجي قليلاً وقال له « كيف استولى الطغاة على مخزن الاسلحة
ذلك الاستحكام المنيع وما فعلت العساكر المجتمعة فيه هل انت صادق في قولك
ام مازح . وهل قتلوا هؤلاء المحصورين ثم تسلطوا عليه » فاجابه البلبان وقال
« ان في هذه الساعة التي انا قائم فيها بين ايديكم حاضر لخدمتكم لم يبق للانكليز من
استحكامات تلك العاصمة الا مستودع البارود وقد تسلطوا على تمام المهمات والذخائر
وتبدلت تلك الحصون الشاهقة والقصور المشيدة والمرابع المزخرفة برسوم خاوية
واطلال بالية » ولما سمعت آلي الخبر خرجت من السرداب على عجل ونادت باعلى
صوتها « لم تتأخرون في الذهاب الى مستودع البارود » وقد نسيت بنتي المسكينة مخاطرات
السبيل وهي انما تريد ان تتصل بزوجها لا تبالي باقتحام الاخطار كأنها قد اختلت

مشاعرها واعملت حواسها وعند ذلك تقدم الفيلبان اليها وقال « لا تقدرين على الذهاب الى ذلك الموضع ولا ادعك تذهبين لان العساكر والضباط المجتمعين فيه صمموا على احراقه عند الاضطرار في آخر الامر فلا يتسلط الهنود على البارود وسائر الذخائر النارية وليس ذلك الا خدمة للشرف العسكري وتنبيهاً للغيرة وحفظاً لناموس الدولة الانكليزية وإعلاء اسمها ولئلا يتلوا بعار الاسر وشنار المغلوبية وتحرق هؤلاء الشجعان انفسهم بنار الغيرة فلا يمكن لك ولا لمثلك الذهاب اليه » فما سمعت الآن هذا الكلام الا واخذتها رعدة وخرت مغشياً عليها . فذهبتُ اليها ووضعت رأسها على ركبتي ولاطفتها حتى فتحت عينيها وذكرت اسم ذلك المخزن ثلاث مرات وسكتت ثم اخذت رأسها بيديها وتنفست الصعداء واستولت بعد ذلك على حركاتها واطوارها آثار الكآبة وذبل سهاها وانهكتها الهموم في عنفوان شبابها

اما الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه آنس بالآن أنساً غريباً وكان واقفاً على مقربة منها يبكي على حالتها المحزنة ومحمد يصرّ على الذهاب . فاشرت اليه هل يجوز في قانون مروءتك وطريقة انصافك التي تنتمي اليها ان نترك هاتين الضعيفتين هنا ونذهب واي آدمي يرضى ان يترك نوعه في ورطة البليات ويهرب . فلما عاين اصراري على نجاتها دمدم بالهجة الهندية قائلاً « قد تعلقت مشيئة الله بانقراض الانكليز وزوالهم ولا يفيد التدبير مع تقديره اذ لا راد لامره ولا مقاوم لحكمه » واطرق ملياً وهو ينكت الارض ثم دخل السرداب من غير ان يكلمني واخرج احدى الامرأتين ووضعها في هودج الفيل وهي لا تزال تصيح منذ رؤيتنا الى هذا الوقت لانها تحسبنا من الاعداء وتسبنا حتى علمت انا لا نريد بها شراً فسكتت اما الضعيفة الاخرى المنقطعة الساعد فربطنا جرحها لئلا يتدفق منه الدم فاتكأت على زوجتي وصعدت من الدرّج واجتمعنا ووضعناها في الهودج اما الطفل فانه لم يفارق آلن ولم يرض بالجلوس عندها وما زلنا نصرّ حتى فرقناه منها وعزمنا على الرحيل على اثر الفيل

الفصل الحادي عشر

نشد الضالة

ما تحركت هذه القافلة التي ساقتها الغم و رائدها الهم الا واثارت بجرح تعاستي قرحاً جديداً و رزئاً يخلف زاد حرارة الاكباد وفرش الجنوب شوك القتاد . وذلك اني تركت زوجي و بنتي ودخلت تلك الحجرة التي أرقدت فيها طفلي لاوقظه فنطوف معه ومع دايته بالمسافرين فرأيت بساط النوم خالياً والداية مفقودة فدققت نظري وحدقت بصري فما وجدتهما وطفقت اتجسس الزوايا والغرف انشد ضالتي العزيزة فما رأيت لها من عين ولا اثر . فصرخت حينئذ شهقة فظن زوجي اني وقعت في ايدي الاشرار ودخل الغرفة مع التيلبان وهما مندهشان وقد اخرجا مسدسيهما للدفاع فلما وجداني وحيدة قالا ما العلة لعويلك وصياحك فلم اجد كلمة اتفوهها من اشتداد الهموم ولكنني جعلت ألطم وجهي وامزق ثيابي واصيح مثل المجانين واقول اختفى فتاي

فعلت زفرتي وطال اقلاقي   وبدت لوعتي وسالت دموعي

فسأل زوجي من الذي اختفى من الذي قتله . قلت اختفى ابني . فقال ابن دايته فالداية هي ايضاً مفقودة ثم قلت « يا الهي ان مضت ارادتك وجرى تقديرك بفقدان طفلي لاكون في الدنيا محرومة من حظوظ ملاقاته فاسألك ان تمن عليّ بموت عاجل لعلي أراه في العالم الآخر فقد انهكتني المصاعب ولا أقدر على مفارقته » وبعد هذا اخذ زوجي شمعة وشرع يتجسس الحجرات حتى اتى على تمامها فلما يأس من وجدان ولد شاركني في البكاء والنواح ومن زيادة الغصص وتراكمها اتفقت له حالة غشوة فسقط على وجهه منكباً عليه عند منامة ابنه فلما عاينت حالة نسيت همي وخرج خيال ولد من مخيلتي فوقفت على رأسه وقد اصفر لونه وتشبك عذبة بيده واستولى على حواسه خمود عظيم لا يحركه ابداً فخفت ان تعتريه سكتة او فجاءة لان الحوادث والخطوب التي تنزل على المرء بغتة كثيراً ما تورث السكتة والهلاك وازدادت وحشتي من ان يخفف من هجمات الغصص فيتركني في ورطة البلايا - نحن الامهات نكون

رقيقات القلوب بالنسبة الى الآباء وذلك من القوانين الطبيعية التي أودعها الله جل وعلا في طبائعنا ولولا هذه الرقة والحفاوة لتبدد سلك تربية الاولاد . وكان عليَّ ان اكون أكثر هماً وازيد غصة من زوجي لكنني تجلدت وشرعت بتسليته وفتحت حلقات قميصه لدخول النسيم البارد الى قلبه ثم وضعت فمي على أذنه وصرت أُسليه قائلة :

« ان الداية لما تصورت حالة ابتلائنا وصدماتنا الواردة توحشت واخذت طفلنا وذهبت به الى مأمن لمحافظته . هوّن عليك الامر سنجد ابننا قم بنا نذهب لعلنا نجده في احد المعابر » ولكن وا اسفي فان كلماتي ما اثرت في زوجي وكان الروح فارقت ذلك الجسم العزيز فايقنت بموته فقلت في نفسي يا ترى ماذا افعل الآن دعوت محمداً مراراً فما اجابني واذا به دخل ووضع على الارض طستاً مملوًّا من الماء واخذ بصب الماء على قلبه وجبهته وما زلنا نرش عليه الماء حتى افاق قليلاً بعد مضي دقايق وسمعنا منه انيناً ضئيلاً دلنا على حياته ولما فتح عينيه سألني عن ابنه أآلن بصوت رخيم وقال اين هي فانه كان متيقناً انه لن يلاقي ابنه بعد ذلك فقطع علاقته وانقطع رجاؤه بالكلية ثم قبضتُ على ساعده فاتكأ عليَّ حتى استوى جالساً وعانقني واستمر البكاء بيننا لفقد ولدنا الذي كان ذخر شبابنا فرق قلب القبلبان من نواحنا وقال لي « خففي عليك الامر وهوني ولا تبدي اكثر من ذلك وكوني قوية القلب واني اعلم ان ولدك عند دايته الآن ترين هذه الغرفة ليست فيها اثار دم وقتل نفس انظري سطح الغرفة هل تجدين فيه شيئاً من ذلك . هذا وقد اشتبك القتال واستعرت نار الحرب خذي حذرك وبادري بالحركة مع زوجك وبنتك عسانا ان نخرج من هذه الورطة واظن ان الداية لما رأت ارتباك امرنا ذهبت بهذه الامانة الثمينة الى مكان آخر . ولقد طالما جرَّبت الدهر في حالتي شدته ورخائه وطالما لدغتني عقارب المصايب وسرت اليَّ سمومها ووقعت مع الخطوب السود فما قنطت من رحمة الله الشاملة حين تورطي البلايا وابتلائي بمكابدة الهموم لانه تعالى فتح عاقبتها حتى هبت سعادتي من رقدتها وهو الذي يوصل الطالب الى مطلوبه والمحب الى محبوبه وقد قيل للدهر طعمان حلوٌ ومر وللايام صرفان عسر ويسر » وطول الكلام انا لم نعرف لويل مثوى . وذهبت اتعابنا عنه بغير جدوى وتسلينا بكلام القبلبان وخرجنا من البيت والدموع تجري

الله تعالى بمساعيك المشكورة · ودخلنا مأمنا منيعاً · لكن قلت له اين ولدي العزيز فقال « لا بأس ولا تجزعي ان الله يكلأه وسأفحص عنه بعد ساعة اما الآن فعلي ان اهيء لكم شيئاً من الطعام لعلكم تحتاجون به » قال هذا وذهب · اما غرفتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عدة من الكراسي والتخوت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان ننام لعلنا نريح ادمغتنا من التشويش · وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا قط فقد كنت طريحة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكفت اضلاعهم عن الاضطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه كان قد اخذ منه النوم ماخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هو شغلي الشاغل اني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعبأ بتشتات حالي وسوء مآلي ولا اتذكر مصائبي الآتية بل نسيت الحوادث كلها راضية بجريان القضاء والقدر وانحصرت تفكراتي في ابني وبل وتعلقت حواسي بترديد تذكاره تعلقاً شديداً لا اتملك منه طرفة عين · يا ترى هل اختطفه الملعون ام في اي حال هو · وليت شعري هل هو سالم الآن كما كان عندي · اما قلبي فكان يبشرني تارة بحياته واني مأخوذ بسعادة ملاقاته واخرى تأخذني الهواجس بانه لو قتل في ايدي السفاكين ما افعل بعده وكانت وساوسي تزداد شيئاً فشيئاً حتى بدت تباشير الصباح والقت الشمس رداءها الذهبي على جبين الفلك

جاء محمد وفتح باب الغرفة واذا بيده خبز وفاكهة وشيء من الطعام المطبوخ واكد تأكيداً بليغاً في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من مأمنكم هذا الى قاعة الدار فان الهنود لا يبقون على احد ويسفكون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تختفوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمراً لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوكم واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابه الي وقال تسلية لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجتمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام · فالجروحان اللذان خلصنا من الهلاك جلسنا في زاوية · وذلك الطفل رافق بنتي وجلس عندها · اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال الكل واحيانا اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مهيج حتى ان تجس من عينها قطرة دمع فيطفئ لهيب غضبها في داخل قلبها

والتملص من ايدينا . فقال زوجي اين تريدين في مشيتك . فاجابت اذهب الى مخزن البارود لان زوجي فيه واني متيقنة انه يترصد وصولنا . يا ويح قلبي ان ابنتي صارت مجنونة لا تعبأ بنصائحنا وقد اشتد شوقها الى زوجها فجعلت جل همها بلوغ اوطارها كانها هيكل يدل حالة الحزن وتاهيك ببال مشتغل . وبلبال مشتعل

ومن البلية عذل من لا يرعوي　　عن غيه وخطاب من لا يفهم

الفصل الثاني عشر

﴿ بيت علي ﴾

فاخذناها بالعنف وتأبطنا ذراعها واخبرناها بمتابعتنا . وهذه الحلة التي نحن الآن فيها أسلم الحلات على اننا كنا نسمع من بعيد ضجة الضاربين وضجة المضروبين ونرى في الافق المظلم الذي يحاذي الافق الشرقي شعل النار التي علت من البيوت المحترقة . وفي اثناء ذلك وقف القبلبان وقال « قفوا هنا وانتظروني ولا تتحركوا ابدًا حتى آتيكم بخبر » قال ذلك واخذ ناحية الجدار واستمر في السرى وكان الجدار مجصصًا فكنا نرى شبحه في طول خط هذا الجدار الابيض فما فارقنا عشرين قدمًا حتى توقف فلاحظت بدقة ووجدته متوقفًا امام باب عظيم يقرعه بطرز خاص يفهم السامع منه ان قارع الباب له ود قديم وسابقة عهد مع صاحب البيت . ففتح الباب وطالت صحبته مع الفاتح برهة . فيا لها من صحبة حقنت دماءنا ومكالمة اشترت حياتنا . تلك المكالمة التي لم تمتد اكثر من خمس دقائق لكنني تصورتها اطول من خمس سنين حيث كنا بين خوف ورجاء وانقطاع والتجاء حتى اذا تمت التحية وصفر محمد فعلمنا انه يدعونا فتحركنا حتى بلغنا باب الدار فاشار بالدخول فلما دخلنا حسبنا انفسنا في جنة عدن فمررنا من حديقة وسيعة تنتهي الى عمارة عالية فوقفنا عندها وحططنا احمالنا من متن الذل ووردنا غرفة فاغلق القبلبان بابها وقال وهو فرحان « احمد الله على شمول نعمه عليكم لانه وفقني بعونه وعنايته الى انقاذكم من المنكبة » قلت نعم انقذتنا الطاف

الله تعالى بمساعيك المشكورة . ودخلنا مأمناً منيعاً . لكن قلت له اين ولدي العزيز فقال « لا تيأسي ولا تجزعي ان الله بكلأه وسأفحص عنه بعد ساعة اما الآن فعلي ان اهيء لكم شيئاً من الطعام لعلكم تتقوتون به » قال هذا وذهب . اما غرفتنا هذه فوجدنا في وسطها طاولة مستديرة عليها سراج اضاء الغرفة وما حولها وفي اطرافها عدة من الكراسي والتخوت الافرنجية فاستلقينا نؤمل ان ننام لعلنا نريح ادمغتنا من التشويش . وظني ان النوم ما قرب من اجفاننا قط فاني كنت طريحة في موضعي لا اجد للنوم سبيلاً ورفقائي امثالي قد انكشف اضلاعهم عن الاضطجاع الا هذا الطفل الذي وجدناه في السرداب فانه كان قد اخذ منه النوم مأخذه

وقد يعلم قراء قصتي المحترمون ما هو شغلي الشاغل فاني كنت لا اذكر احتراق بيتي ومسكني ولا اعبأ بشتات حالي وسوء مآلي ولا اتفكر مصائبي الآتية بل نسيت الحوادث كلها راضية بجريان القضاء والقدر وانحصرت تفكراتي في ابني وبل وتعلقت حواسي بتردد تذكاره تعلقاً شديداً لا انفك منه طرفة عين . يا ترى على الحقيقة المنوم في اي حال هو وليت شعري هل هو سالم الآن كما كان عندي . اما قلبي فكان يبشرني تارة بحياته واني سأفوز بسعادة ملاقاته واخرى تأخذني الهواجس بانه لو قتل في ايدي الاشقياء كيف ما افعل بعده وكانت وساوسي تزداد شيئاً فشيئاً حتى بدت تباشير الصباح وانبثت الشمس رشائها الفضي على جبين الفلك

جاء محمد وقنطر وفتح باب الغرفة واتانا بخبز وفاكهة وشيء من الطعام المطبوخ واكد تأكيداً بليغاً في عدم خروجنا من الغرفة وقال « اوصيكم بان لا تخرجوا من مأمنكم هذا الى قاعة الدار فان الجنود لا يبقون على احد ويسفكون دم كل من وجدوه لا يشفقون ولا يرحمون وعليكم ان تختفوا ما دامت الثورة قائمة والهياج مستمراً لان الاشرار لو اطلعوا على مكانكم قتلوكم واعدموا صاحب البيت في الحال » ثم وجه خطابه اليّ وقال نسبة لي « احلف بالله اني ساجد ابنك اليوم باي طريقة كانت » وكان المجتمعون هنا ستة انفار فانقسمنا الى ثلاثة اقسام . فالخورجان اللذان خلصتنا من الهلاك جلستا في زاوية . وذلك الطفل رافق بني وجلس عندها . اما انا فكنت مع زوجي ملتفتة لاحوال آلي واعلمها اذكر لها المصائب الواردة لنا ببيان مهيج عسى ان تحبس من عينيها قطرة دمع فيطفئ لهيب غصصها في داخل قلبها

ويخرج بعضها بواسطة البكاء

لعلَّ انحدار الدمع يعقب راحةً · من الغم او يشفي نجي البلابل

لكنهما لم تكن تعبأ بكلامي ابدًا ولا تأكل الغذاء. فاكلنا شيئًا من الفاكهة فاسدةً الجوع وشربنا الماء من ابريق كان عندنا اما هاتان الضعيفتان فكانتا تنفقان من الماء اكثر مما يلزمهما فانهما بعد ان سكن عطشهما شرعتا تغسلان جروحهما بذلك الماء القليل. فتقدمتُ اليهما وقلت لهما بلطف ووداعة اريد تنبيههما « ان الماء الذي تتلفانه بهذه الصورة كل قطرة من قطراته سبب لوقاية حياتنا فهل تقدران على شربة منه بعد الاسراف والاتلاف · ام تظنان اننا على شاطئ بحر او ضفة نهر » وكنت مترجية انهما تكفان ايديهما عن التبذير لكنهما هاجتا غيظًا وحدقتا اعينهما اليَّ وقالتا « يا للعجب نحن نتجادل في هذه الفرقة على قطرة ماء ودماء ابناء وطننا تجري في معابر دهلي كالسواقي »

ولا بد ان اذكر هنا ان هاتين المجروحتين اصحبتا في شدتنا هذه مزيدًا على وبالنا وضغثًا على ابالتنا لانحيازنا ابدًا بل كانتا في نفور طبع وبغض شديد منا ومن ذنبنا الذي ارتكبناه الا اننا كنا وسيلة لنجاتهما وسببًا لحياتهما اذ كان محققًا لها اننا لولا وصولنا البارحة وبذلنا الهمة في سبيلهما ما وجدتا بدًا من الموت الزؤام وأن ما تغرب شمس ذلك اليوم الا وتكون شمس عمرهما افلةً زائلة ومع ذلك كانتا معنا في اشد تكبر لاسيما بعد ما علمتا اننا من طبقة الزراعين فازدادت كبرياؤهما · كانت لزوجي مهارة في مداواة الجراحات فربط ساعد احداهما وكانت قد اشرفت على الموت ومن سعادتها انه انسدت فوهة القرحة وانقطع اندفاق الدم الجاري منها الذي كان علة قوية لازهاق روحها · اما الاخرى فكانت في عينها اليمنى قرحة كبيرة تئن من ألمها وظهر ان هذه التعيسة ستعيش معيوبة العين بعد مدة قصيرة · ونحن ما اردنا كتمان نسبنا واخفاء امرنا عندهما الا لاطلاعنا على اصلهما فما ظفرنا من ذلك بشيء يريح قلوبنا مع اني كنت اريد الاطلاع على حالهما لطريق الاجمال لاعلم من اي الطبقات هما · فشرعت الاطف ذلك الطفل واستميل فؤاده ليرتفع الحجاب عن وجه السر فقال انه ما رآهما قط الا هنا · ثم انكشف في اثناء الصحبة انه ابن ذلك القاضي الذي احرقه الهنود بمرأى منا وهو لا يعلم ان قد قتل ابوه وصار يتيمًا بل يحسبه قد ذهب

الى محاربة الاشرار وينتظر عودته . ثم زادنا بيانًا وقال « ماتت امي أقبل وقوع هذه الواقعة بستة اشهر وكانت خالتي تربيني في حجر اشفاقها في تلك الدار الوحشة التي وجدتموني فيها » فعلمنا ان خالته اعدت مجلس ضيافة لنسوان الانكليز ولما انعقد المجلس هجم الهنود عليه فالتجأت الاضياف نساء واطفالاً الى ذلك السرداب والرجال قابلوا الاشرار في ساحة البيت ولتكاثر عددهم وتوافر مددهم غلبوا على الافرنجيين وقتلوهم باسرهم وحينئذ وقع بين هاتين الامرأتين نزاع فتشاجرتا وعلمنا ان في الكلام نبالاً فقالت واحدة منهما للاخرى « ايتها التعيسة لاتقدرين بعد هذا ان تدخلي المطابخ وتكوني طباخة بيدك المقطوعة » فاجابتها الاخرى « ذهب بصرك وهبط نجمك وقد فقدت احدى عينيك ولا تقدرين من بعد ان تأوي بالخدمة وتغزي بحاجبك الى معشوقك » فعلمنا مع تكبرهما ان احداهما طباخة والاخرى خادمة . وفي اي حال انهما وقتئذ متساويتان في الشؤون والرتب ومع ما رايت من الخيلاء والغرور فيهما لم افهمهما اطلاعي على انهما ليستا من فرع اصيل وطبقة عالية لاني رأيت ذلك خارجًا من قاعدة الانسانية بل سلكت معهما طريق الحفاوة مبالغة في تنفذ احوالها على خلاف ما كانتا عليه . فما زلت اداريهما حتى لانت طباعهما وشرعتا في الالفة والخدمة لي ولابني بقدر الامكان

وبعد ان لاحت انوار الصبح واضاءت جبهة الليل الحالك بشعاعها المتتابع وجدنا انفسنا في غرفة وسيعة مجصصة الجدران ورأينا ارضها قد فرشت بالرخام ووضعت الخدات المطرزة في زواياها . ان هذه الدار احسن الدور امنًا واستحكامًا وهدوًا والفتنة وكانت الثورة في اشتداد والجلبة مستمرة واصوات البنادق والمدافع مرتفعة نسمعها في التوالي من كل الجهات . لقد هجمت الكوارث والمصائب من امس على قلبي هجومًا لا يطيقه فرد من افراد البشر ولا يزنه ميزان . فتارة افحص سبب حدوث تلك الموانع واحلي خاطري بحبل خيالية واقول ان البلايا التي اصابتني الى الآن اعبر رؤياي باخرى انصور انه عراني خلل في مخيلتي او علة في دماغي وان لا اصل لهذه الوقائع المشهودة وليست لها صور خارجية بل هي محض تصور او اني كرعت صبح الامس كرعة من كأس البنج كما يفعل الهنود وان ذلك نتيجة اما زوجي فقد داخله الانفعال من قعوده عندنا وفي ما كنا لايمكنه يتمنى اللحوق بابناء

وطنه والحضور معهم في معركة القتال تارة يهم بالخروج من هذا البيت وتارة يقبل على نفسه بالتأمل والتفكر وبعد ان اطرق طويلاً رفع رأسه وقال مخاطباً لنفسه « الآن حيث طلعت الشمس لم يبق قدرة للاشرار على اثارة الفتن ولا يتمكنون من المقاومة امام عساكر الانكليز وسينهزمون الى مقدير يومنا هذا وسوف تنتظم دهلي والعساكر والقواد المتحصنون في بارودخانه يحلون شملهم في اقرب وقت . ثم ان العساكر الهندية ما شرعوا عوامل العصيان باجمعهم فان منهم جمهوراً كبيراً في ميرته لم يدخلوا دائرة الثورة وهم باقون تحت قوانين الانكليز يواظبون على حفظ مواثيقها العسكرية يترقبون الاتصال بالانكليز ليتحدوا معهم في قمع الثورة »

ثم شرع باظهار رأيه في نظام الهند وسياستها الآتية وقال « لو سنت انكلترة قواعد عساكرها الهندية على اساس متين وبنيان مستحكم وواظبت على تنظيمها ما وقعت بعد ذلك في مضيق الهرج والثورة » ليت شعري هل هذه عقيدة زوجي ام هي نفثة مصدور يتكلم بها تسكيناً للوعتنا واطفاء لنيران الضجر منا ام هي كما يبدو لنا آتياً على قوله انه لا دليل لهذه الثورة الا نفور قلوب الجنود من استعمال الرصاصات الملوثة بدهن الخنزير او البقر ام هو قد خرف وابتلي بالصمم فلا يسمع الضوضاء والاصوات المرتفعة الهائلة حيث يصيح الاشرار ويطالبون حريتهم وخروجهم من تحت قوانين الانكليز بقوة اسلحتهم ام هو لا يعلم ان هذه الثورة ليست تختص بنقطة او بقطعتين مثل ميرته ودهلي وانها قد شبت نيرانها في اصقاع الهند وكل انحائها واقطارها . ولا يعلم ان انكلترة لا تقدر على نسخ عوائد الهنود واستهلاك رسومهم وشرائعهم وانه لا يتأتى لها ان تتركهم تحت نفوذ عدة من امرائها مع تباين المذهب واختلاف المشارب وعدم توافق الآراء والعقائد

كلا . ليس كذلك زوجي اذ ليس هو بضرير ولا بأصم ولا هو بصائم بل يرى ويسمع ويحيط بجملة المطالب وتفصيلها قد حلب الدهر اشطره وذاق حلوه ومره وعجم عوده وانما تعود هذه العادة واخذ حسن الظن مسلكاً تفاؤلاً لوحشتنا . ومن غرائب آماله ان يقول حينئذ « سيطفأ لهب الهياج وستعود ايام السلم ونكون على غاية ما يرام من السعادة ونأخذ الخسائر التي انفقت لنا عند تخريب بيتنا واغارة الاشرار عليه وجبر هذا الخسران من التكاليف على ذمة الحكومة على حسب القانون »

وفي اثناء الحديث وقد كنت اصدق اقوال زوجي في ظاهر الامر كان دوي المدافع يأتينا من غير انقطاع فرفع راسه واصاخ بسمعه ثم قال « الا تسمعين صوت المدفع يأتينا على غير حالته المعهودة فاظن العساكر مدخرة من القنابل الصغار شيئاً كثيراً والاصوات التي ترتفع بعد اطلاقه ثم تسكت بضع دقائق ثم يتجدد اطلاقه فيستتبعه انين كل ذلك دليل على ان المدافع تتلف اناساً كثيرين في كل دفعة ويكون ذلك الدفع الموقت فاصلاً لحملاتهم فيؤخرهم عن الهجوم ثم يجتمعون ثانية . وانا اتصوّر ان الجلبة تاتينا من قلعة سليم غوري » فاجبته ليس الامر كما تظنه فان تلك القلعة الى يمننا والاصوات تاتينا من اليسار ويخالج خاطري ان هذه المحاربة عند درب كنكونا او في ميدان بارودخانة فاصاخ برهة وقال « علمت ان مدفعية ميرتهة المخوّنة معنا تجاوزوا جسر جمنا و بدأت المقاتلة من خلف الاشرار ووقع الطغاة ان شاء الله بين مهلكتين وما تمضي برهة الا وينكصون على اعقابهم وتنطفئ الحرب اوزارها وتنجلي غبارها ونعود الى دارنا ونجد فيها ابننا مع دايته » فقلت نعم لو شاء الله فعل . فمضت على ذلك عدة دقائق وما سمعنا صوت بندقية ولا مدفع قط . ثم سمعنا صوت مدفع واحد تبعته اصوات البشاشة التي كانت علامة للفتح والغلبة . فتحير زوجي وقال يا ترى ما الذي وقع هل خلت عساكر الكفار مستودع البارود فتصرف الجنود في هذا الموضع ايضاً . ولما ذكرنا اسم بارودخانة قامت آكن وقبضت على ساعدي بشدة وقالت ما قلتم عن بارودخانة . فاجبتها ببيان لطيف وقلت ان مذاكرتنا كانت مبنية على تحصن الانكليز في هاتيه النقطة المساعدة لهم . فقالت ان كان الامر كذلك فلمَ لا تقصدها ولا تلحق بوبايام

الفصل الثالث عشر

﴿ احتراق بارود خانه ﴾

ما انمت آكن كلامها واذا بصوت مهيب طرق سمعنا تخيل لنا ان الجبال اندكت وازلزلت الارض فتطايرت ارواحنا شعاعاً واكتسى بياض النهار اغبراراً فيالله من

صوت ارتجت منه الآذان واقشعرت له المتون . وانبعث في اثر هذا الصوت الهائل دوار في رأسنا فلم نستطع الجلوس فوقعنا على الارض وعلمنا ان مخزن البارود قد احترق ولا ادري كم طال ذهولنا الأ اني لما افقت شاهدت نفسي تحت الجص والتراب والروافد التي خرت من السقف لشدة التزلزل فعادت حالتنا الاولى رويداً رويداً وكانت بنتي ساقطة على الارض كأنها ميتة فاخذناها ووضعناها على سرير والدمع ينهال من عيوننا . بادت ثروتنا وفقدنا والدنا العزيز وبنتنا الآن في حالة الاحتضار . وخلاصة القول ان المؤرخين يثبتون اسماء الامراء العسكرية والقواد الذين ابدوا الاخلاص والبسالة في احراق هذا المخزن عند الاضطرار فبذلوا انفسهم بين لهيب النار ووقع السيف البتار لانها وقعة مهمة طفحت بذكرها غدران الصحف وسالت بحبرها الاقلام فلا حاجة بذكرى اسماء هؤلاء الليوث الاشداء الذين قتلوا انفسهم في الذب عن ناموسهم والمحاماة عن حقوق دولتهم ووقاية جيشهم الا اني اذكر هنا ما سمعته من احد الشجعان وكان شاهداً تلك الوقائع

قال الشاهد المومأ اليه « في اليوم الذي سمعتم فيه هذا الصوت المهيب كانت مدينة دهلي في تصرف الطغاة وانهزمت بقية العساكر التي كانت تحارب الاشرار في درب كابل ونبوا سراج الدين محمد بهادر الكوركاني سرير الملك وكانوا مع ذلك يباشرون نهب الاموال وقتل النفوس . فاجتمعت اعاظم القواد مع فرقة مدفعية وطابور من مشاة عساكر الانكليز في بارود خانه وتحصنوا فيه وتعاهدوا ان يواظبوا على حراسة ذلك الاستحكام ولا يسلموه للاعداء بالاختيار . وكانوا ينتظرون ورود فرقة انكليزية لمعاونتهم (وكان صهري وبلهام معهم) ثم انتخبوا من بينهم قائداً اسن فوضوا له رئاستهم في هذه الملحمة العظيمة ولم يبق لهم امل ببقاء الا ببقاء شرف البسالة

« وبناء على التجارب التي عاناها هؤلاء القواد في مدة اقامتهم الطويلة في الهند كانوا يعلمون ان الاعاند لهم جرأة ومهارة في اقتحام معارك الحروب يحسنون الحملة الاولى فاذا انهزم عدوهم فازوا هم باماني‍هم وان صدهم مانع قوي وتصادم عظيم انكسرت سورة صولتهم وتحرت حرارة اقدامهم . فرأوا انهم لو تحصنوا في هذا المكان اربع وعشرين ساعة وعلمت بذلك القواد والعساكر المقيمون في اطراف دهلي

فينسلون اليهم حينئذ من كل حدب ولا يتركون هذه العاصمة في تصرف الاعداء ·
ونظرًا للامنية التامة التي شاهدتها دولة انكلترة من الاهالي ايام استيلائها على الهند
والطاعة والاستسلام اللذين رأتهما منهم ايام السلم ما اهتمت في سد خلال ذلك المخزن
وترميمه كما يجب · وعلى الرجل الحازم العاقل ان لا يغتر بامنية موقتة ولا يطمئن لها ·
وعلى ارباب التجارب والامراء واكابر الدول ان يتدبروا ايام الصلح حالتهم الآتية
ويلاحظوا المخاطرات المستقبلة · كم من مخاوف عظيمة وحروب جسيمة لم تكن الدول
تتوقعها ولا تترقب حدوثها فاتتفت بغتة واورثت نتايج وخيمة وخسائر خارجة عن
نطاق التحمل · كما اصبح ذلك التساهل سببًا لغلبة الاشرار على بارود خانه · والخلاصة
ان المتحصنين وضعوا امام استحكاماتهم مدفعين عيار (١٥ سنتيمترًا) وامروا باطلاقهما
ما دامت القنابل باقية · ولما تمت الذخائر دقوا هذين المدفعين على الارض بالاوتاد
ودخلوا المخزن وابتدروا بالمقاتلة من داخل الحصار وعزموا على احراق البارود المخزون
هنا عند الاضطرار لئلا يتمكن العدو من استخدامه ولاجراء هذا القصد اخرجوا مقدارًا
كبيرًا من البارود ومدوا خطًا بارودياً من المستودع الى مجتمعهم وتناول زعيمهم ذلك
القائد العجوز ذبالة مشتعلة ووقف على رأس الخط ليضعها عليه عند الحاجة · وفي
اثناء ذلك ارسل اليهم سلطان دهلي رجلاً من خواصه يستميل افئدتهم ويعدهم الامان
ان خلوا المخزن · فهدد الرئيس رسول السلطان وارعد وازبد حتى رجع على حافرته
وعند ذلك رفعوا اصواتهم ودعوا لدولة انكلترة والتمسوا سلامة ملكتها فيكتوريا · ولما
يئس السلطان من الاستيلاء على المخزن امر جنوده بالحملات المتوالية · فازدحموا وتسلقوا
جدرانه وانتشبت المعركة وارتبك الامر وما اجدى اطلاق المدافع شيئًا ولما انقطعت
حبال مقاومتهم طفق يودع بعضهم بعضًا ثم وضع رئيسهم النار على خط البارود فاحترق
ذلك البناء المعظم مع من فيه وانفجرت اركانه وهلكوا جميعًا الا شخصين نجيا من
هذه الداهية الدهياء وما كان خلاصهم الا من قبيل خرق العادة او الاعجاز ¤

ومجمل القول ان القبطان ظهر في منتصف النهار وقد لفظ الليل لجامه واجهده
التعب · وكان الجوع قد اضرَّ بنا فتلقيناه بالبشر والترحاب واظهرنا البشاشة في
وجهه وتحفزنا لاستقباله اما واسفي ان ذلك الارتياح لم يدم اكثر من دقيقة اذ
وجدنا يديه خاليتين من الطعام فتبدَّل رجاؤنا باليأس وشاهدنا في وجهه آثار

وحشة عظيمة فسألة زوجي ما الذي وقع بعد هل عندك خبر عن بارودخانة فما اجابة ولكنة اقترب من الكراسي والتخوت وكسر بعضها وبسط عليها البسط والانماط وقال قوموا واختفوا تحت تلك الاسرة بدون تعطيل وتأخير فعزمنا على الاختفاء واذا بالنيلبان قد قرب من باب الغرفة وجعل يسترق السمع ثم قال عجلوا عجلوا انهم سيدخلون وكانت بنتي تثبت على الدوام وتكرر اسم بارودخانه بصوت خافت فسددنا فمها بالعنف واختفينا تحت الاسرة . وهي ليست بمرتفعة عن سطح الارض اكثر من شبر فوقعنا على بطوننا بترتيب خاص فنضد محمد اثاث الغرفة واولاها فوقنا لئلا يستدل الطغاة من رؤيتها على وجودنا تحتها ولم تمض طرفة عين من استتارنا الا ودخل اولئك الاشرار الى هذه الغرفة فسمعنا قعقعة اسلحتهم وكانوا يقولون باعلى صوتهم « الابقاء على الانكليز حرام » ولما رأوا خلو الغرفة غلب عليهم سكوت طويل فسمعنا وقتئذ صوت النيلبان يقول لهم مستهزئاً بهم لم تصغوا لقولي وكلفتم انفسكم مؤونة التفتيش حين قلت لكم انه ليس هنا متنفس من هذا الجنس الخبيث فحملتم كلامي على التزوير وكذبتموني هل تحسبونني مسلماً بعد هذا ام انتم في شك من ذلك وما كان قولي ناشئاً الا من صدق عقيدتي ويا حبذا لو كنا نجدهم ونشترك في اراقة دمائهم واحمد الله لانكم جئتم ورأيتم صدق قولي وارجو ان تعتقدوا بان مسلمي الهنود لا ينوهون بباطل وزور كسائر الملل وخصوصاً اذا اقسموا لانهم اذا كذبوا وقتاً من الاوقات على سبيل المصلحة فلا يكذبون اذا خافوا قط »

لا يسوغ للمطالع ان يبدي ملاحظة على ذلك القسم ولا ان يلوم النيلبان فانة كان صادقاً في قوله وحلفه لانا كنا مختبئين لا يرانا احد ومع ذلك فهم لم يعتقدوا على قوله وانتضوا سيوفهم وطفقوا يفحصون تحت الاسرة باسنة بنادقهم مثل عمال الكمرك اذا ارادوا تفحص بعض الاحمال واموال التجارة والامتعة التي مع مرورها فاصابتني حينئذ ظبة سيف مزقت اهاب ساعدي فما تنفست من الخوف فاضطرب محمد وخاف ان لا نصبر وصاح قائلاً « رأيت هولاء الكلاب في ساحة الدار فعليكم بتعقبهم » ولما سمعوا خرجوا من الغرفة بعجلة وتبعهم النيلبان واغلق الباب علينا وهو يقول « اتبعوا يا اخواني عسانا ان نظفر بهم ونتوفق الى قتلهم ونستريح » فاخرجهم من البيت بهذه الحيلة ثم عاد وانقذنا من هذا الحبس الوقتي

الفصل الرابع عشر

﴿ الجوع ﴾

ولما اطمأنت خواطرنا وعاد الينا السكون اضطرمت فينا نار الجوع وقلنا له ان سلمنا من آفة الثورة والشغب سنحترق بلواظ السغب و يفترسنا الجوع وقد انشب اظفاره في اعصابنا وعروقنا - ان كنت لا تستطيع الاتيان بالخبز والاطعمة فائتنا بشيء من الارز فاننا اشرفنا على الهلاك . فاجابنا لا اقدر على تحصيل قوت اكم الا عند وقوع الظلمة فقد دعيت اليوم مرتين الى محكمة الاستنطاق وحاكموني من اجلكم اشد المحاكمة وقالوا انبئنا عن اربابك الذين كنت عندهم اين توارو وفي اي الزوايا اختفوا وان لم تنطق بصدق طلبناك فاجبتهم باني لا اعلم لهم مأمناً كنت معهم في اول الهياج ورافقتهم الى درب دهلي ثم فارقتهم من ذلك الوقت ولا ادري الآن هل هم من الاحياء ام الاموات . وقد امر السلطان بالمنادي فنادى في الاسواق والمعابر بان يجس الاهالي مضايق الدور وشعابها وخاليها وآهلها ويتفحصوا كل مرداء وتجراء شبرًا شبرًا ويقتلوا من وجدوه ويأتوا برؤسهم لاخذ الجوائز المعينة فجائزة رؤوس الرجال ثلاثمائة روبية ورؤوس النسوان مئتان وخمسون روبية والاطفال مئتا روبية

فتولانا من استماع هذا الخبر رعب شديد انهالت له دموعنا وارتعشت ابداننا فتدم القبطان من اظهار اطلاعنا فاراد تسكين قلقنا وقال « لا تيأسوا لما سمعتموه ان الهنود وان تغلبوا على دهلي وقتلوا من فيها فهم لا يظفرون ببقية العساكر ومن الامور المسلمة انهم سيجتمعون ويدخلون دهلي بسطوة وبطش ويستعدون للانتقام واعلموا اني لا افارقكم ما دمت في قيد الحياة الا ان اقتل وصاحب هذا البيت على من احبائي وهو يعلم سرًّا انكم في بيتو الكنة لا يسعى في اظهار ذلك حسب العادة وهو يتجاهل ويرى اكرامكم من فرائض الانسانية وقد لاقاني صباح هذا اليوم وقال اني آويت اربابك الى هذا الحين و بالنظر الى المودة الثابتة بيني وبينك . اذنت لهم ان يختفوا في بيتي الى انقضاء ثماني واربعين ساعة ثم لا اقدر على ايوائهم اكثر من ذلك

فابحث لهم عن مأمن آخر . واقول لكم لا تخافوا ارجو ان اعين لكم مأمناً احسن من هذا » ذهب الفيلبان وقرب اليوم من الاختتام وجنحت الشمس للغروب فمدَّ الظلام رواقهُ ونحن في اضطراب لايحد وقلاقل لاتعد

اما آكن فقد سقطت من الصبح ولا تزال الى الآن كانها ميتة لا تتكلم ولا تتحرك ابداً ولكنها تئن وتقول بصوتها الضئيل احترق بارود خانه . اما هذا الطفل فقد تغشاه الكرى . وهاتان الامرأتان كانتا غريقتين في بحر الانين من عارضة الحمى التي نشأت من كثرة الجراح . وانا وزوجي كنا في أسوإِ الاحوال فانهُ كان يخطر في الغرفة وهو بحسب المشي كما يكون داعياً لزيادة شهوة الطعام في اوقات السعادة يمكن ان يكون سبباً لسد الجوع عند التعاسة وسوء البخت

اما انا فلم اكن فيلسوفة كزوجي فقد كان بطني طاوياً وراسي عارياً فتارة استلقي واخرى اتناوم واتذكر ابني واتحسر على فقدي اياه فاضرَّت بي سورة الجوع بحيث نسيت شمائل ابني وانمحى شكلها من لوح خاطري وكلما اردت تصور صورته ما تمكنت منهُ . نعم ان خصال الانسانية وخصائص البشرية والقوى المدركة تجاور البشر وتلازم الدماغ الى وقت محدود ومدة معينة على ان لايكون الانسان محجوراً من حاجيات الضرورية ومقتضياته الجسمية اما اذا مسهُ ضرٌّ وابتلي ببلية فتزول حواسهُ الباطنية ويرتكب انواع الرذائل ويخرج عن ذاتيته وينتزع من جنسيته فاذا فاتهُ طعام يومهِ او لم يقدر على استيفاء نومهِ نسي عشيرتهُ واقوامهُ . واقرباءهُ وارحامهُ . ينكر صديقهُ وحميمهُ ويجفو سميرهُ ونديمهُ . ويقول بعضهم ان المحتضر يبكي في حالة اغمائهِ وغشونهِ ويعتقدون ان بكاءهُ لمفارقة الاحباب والتعلقات الدنيوية . فان ذلك ليس عندي بشيء مقبول وان كان لم يرجع احد من الاموات ليخبرنا من عالم الاحتضار فنطلع على كيفية افتراق الارواح من الابدان ونقف على سبب هذا البكاء. لكن عقيدتي ان بكاء المحتضر ليس من قبيل تأثره النفساني على قطع علائق نفسهِ الصعبة بل هو يبكي على نفسهِ عند حلولهِ في رمسهِ لانهُ ذاهب من عالم نوراني الى عالم ظلماني ولا يعلم ما يأتي عليهِ هناك

ويخطر ببالي اني قمت من مقامي وقتئذٍ وشهقت شهقة ووقعت مغشياً عليَّ واظن اني تحزمت للقيام فارتعدت رجلي وحصل في راسي دوار فسقطت تجاه زوجي وقعد

عندي ووضع راسي على ركبتهِ وكان ينظر اليَّ بلامح الحسرة وما زال يلاطفني حتى افقت من سقوط قطرات دموعهِ على وجهي والجوع على حالتهِ الاولى فنوتني حناوتهُ . ولما رآني بهذه الحالة نادى باعلى صوتهِ اين انت يا محمد لم لا تجيءُ . ثم ادخل يديه في جيبه واخرج منهُ ذهبًا كثيرًا وقام يتردد في الغرفة تردد باز قصت اجنحتهُ او اسد غضبان لا يقدر على الخروج من عرينهِ يصيح و يقول من يأتي بكف من ارز اعطيتهُ هذه الليرات . فلما اضطر فتح باب الغرفة وخرج الى القاعة فناديتهُ اين تذهب وقمت لامنعهُ من قصدهِ فما مشيت بضع اقدام الاَّ وسقطتُ من الضعف . وما طالت مدة خروجه عن ست دقائق لكنني تصورتها اطول من ست سنين فلما دخل رأيتهُ قد عطف ذيل ثوبهِ وهو مملوءٌ من البورتقال والاثمار الهندية فوضعها عندي وقال لا تتعدي في حالة الانتظار اكثر من هذا واصرفي شيئًا ما حضر عسى ان ينسد جوعك . اما انا فلم اكن مختصة بهذه الضيافة وحدي فان للاخرين ايضًا حقًا فيه فدعوت تينك الضعيفتين للاكل فاجابتا . وما قبلت آلن اكل شيء ابدًا وكان الطفل نائمًا فحفظنا حصتهُ وتعشينا بتلك الفواكه و بتنا حتى انتشرت اعلام الصبح في اقطار الافق فما جاء محمد هذا اليوم الى ان مضت الساعات وحان الميقات

اين الفيلبان يا ترى اين ذلك الرجل الوفي هل هو محبوس ام عارضة معارض لاجلنا ام حدثت حادثة منعتهُ من مجيئه . كانت وساوسنا تزداد شيئًا بعد شيء حتى غرقت الآفاق في امواج الظلمة فنهض زوجي لتحصيل الفاكهة واحضر مقدارًا كثيرًا من الاثمار مع عدة حبوب فرتقنا بها فتق الجوع وسددنا ثلمة وهذا الطفل ابى اكل الفاكهة وطلب منا الارز المطبوخ فوعدنهُ بتحصيل مطلوبهِ في اليوم الآتي فسكت واستمر في نومه . ما رأيت في مدة عمري طفلًا حريصًا على النوم مثلهُ فانهُ نام ثلاثة ايام على الاتصال . وبعد هذا نام زوجي ونامت الامرأتان الاَّ انا فاني حاولت النوم مرارًا فلم اقدر كاني على شوك القتاد وكنت اسمع خشخشة اثواب آلن حين قيامها وقعودها فعلمت ايضًا انها ساهرانة مثلي

انا وبنتي كنا مبتليين بالوساوس الباطلة اما هي فقد كانت تتصور الحالة الحالية واما انا فكنت اتصور مآل الامر ومنتهى العمل . املي نفسي بان عساكر الانكليز

فتحوا دهلي وقرروا فيها نظامها السابق ونحن مشتغلون بترميم عمارتنا وتعميرها وصهري نال الجوائز والوسامات لاجل الشجاعة التي ابرزها في المحاربات وانا امضينا امر تزويج آكن باحتفال شائق وانني قعدت مع زوجي وطفلي ونزل في باخرة انكليزية لنذهب الى لوندره ونريد بعد الوصول ان نضع ولدنا العزيز في احدى المكاتب الاعدادية ليشتغل بقراءة مبادىء العلم ثم نرسلة الى المكاتب الفنية لتعلم الصنائع والمعارف . والخلاصة انني كنت غريقة في لجج هذه الآمال اتصور سعادتي الموهومة حتى مضى هزيع من الليل؛

واذا بصوت خفيف سمعتهُ من ساحة الدار فاصخت فسمعتهُ آتياً من الباب فلم اقدر على الجواب فتكرر دق الباب ثم فتح بعد حركة قليلة وطرق الطارق فما سمعت الا وقع الاقدام فوق رمال الساحة يبين للسامع تعدد القادمين . فقربوا منا حتى وصلوا باب الغرفة وقرعوه بسكون وخفة فقلت لزوجي ما العمل حينئذ فقال لابد من فتح الباب فان هؤلاء القادمين لو كانوا من الاشرار ما دخلوا الدار بهذه الخفة والسكينة ففتحنا الباب واذا بهنديتين قد تقنعتا بقناع ابيض واسدلتا القناع دخلتا الغرفة ثم جلست واحدة منهما في وسط الغرفة واخرجت من تحت ابطها سلة من السلال المعدة لوضع الالبسة واخرجت منها اثنين من الملاحف التي تلتحف بها نساء الهنود عند خروجهن من البيوت وقالت لنا قوموا والتحفوا بالملاحف وارتدوا بها فوق ثيابكم واتبعوني فسألها زوجي الى اين نتبعك قالت الى المحل الذي ينتظركم محمد الليثان فيه . فلما سمعنا اسمه زالت وحشتنا فقمنا والتحفنا بها وقفونا اثرها وما زلنا نمشي حتى بلغنا الجادة الكبيرة الواقعة في وسط دهلي فوجدنا ترابها مضمخاً بالدماء بحيث لا تقدر الرياح الهوج عند هبوبها على اثارة ذرة منه وما رأينا في طول طريقنا الا غرباناً ونسوراً تقع على جثث القتلى وتشتغل باكلها واختطاف الامعاء والاحشاء منها . وكلاباً نسمت من كثرة الاطعمة فوة الجثث والمنازعة واتفقت مع امثالها بكمال الالفة في تقسيم الاجساد . وشاهدنا ابناء وطننا كغثاء طافٍ على سيل جارفٍ او كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف

كنا مجدين في السير حتى رقت حاشية الظلماء واوشك صبغ الليل ان يحول فخرجت الاهالي من منازلهم وانتشروا لاداء الصلاة ولقيام العبادات مثنى وثلاث

ورباع وكان مسلمو الاهالي وعبدة الاوثان يقصدون نهرجمنا للاغتسال والتطهير وما كانت الارقتان ملتفتين الينا وقصدهما بعد اداء الفرايض ان يتقلدوا اسلحتهم ثانيةً ويتفقدوا المساكن والمعاهد والزوايا والمشاهد · ليقتلوا الذين يفارون بهم من الافرنج

الفصل الخامس عشر

﴿ المرور من امام المسجد ﴾

وكانت دليلتنا تقول عجلوا وما زلنا نسري حتى وصلنا الى شجرة عظيمة الساق قد احاطت اغصانها بقاعة بنيت في وسطها واظلت ما تحتها وشاهدنا جمعاً كثيراً من الجنود والحرّاس قد جلسوا امام مسجد في محاذاة هذه الشجرة الضخمة · وعلينا الآن ان نعبر من بحبوحة هذا الجمع فان الطريق محصور هناك والعبور مستحيل من بين الف نفر من غيران يعرفونا · فقلنا لنمكث هنا حتى يتحرك الفوج (الفرقة) من مكانهِ ونمرّ سالمين فقالت الهندية «التجأ امس عدة من ابناء وطنكم الى هذا المسجد فحاصروهم في هذا المقام الى العصر حتى ظفروا بهم وقتلوهم وكانوا يريدون الذهاب الى درب كابل بعد طلوع الشمس للمقاتلة مع بقايا الانكليز المجتمعين هناك»

فبالشناعة الامر واشتداد الخطب قد تناصف الليل ونحن في هذه الحالة ثيابنا قصيرة جداً لا تستر اقدامنا والاشرار يعرفوننا بمجرد رؤية الالبسة الافرنجية · وفي اي حال التجأنا الى ساق هذه الشجرة ننتظر وقوع القضا · فالتفتّ بعد مرور بضع دقائق الى الكساء الابيض الذي على رأسي فاذا هو قد احمرّ من قطار الدم · من اين تتقاطر الدماء يا ترى ليس عضو من اعضائي مجروحاً ينزف منهُ الدم على عنقي · ثم فهمت ان الدم يتقطر من فوق رأسي فرفعت رأسي ورأيت رؤوس الانكليز معلقة على اغصان تلك الشجرة تخضب دماً · فتنحيت من مقامي بضع اقدام عسى ان ينقطع رشح الدم فلم يجدِ ذلك نفعاً لان الاغصان كانت كلها حاملة رؤوساً واجساداً · وقد بلغني بعد ذلك

ان نادرشاه الفارسي غزا تلك البلاد منذ ١١٩ سنة وزحف على الهند بجيش جرار فتغلب عليها وقتل امراء محمد شاه سلطان دهلي وعلق رؤوسهم باغصان تلك الشجرة

فما بقيت لنا حالة سكون وقد زلت اقدامنا وارتعشت ابداننا من هول هذا المنظر . وفي اثناء ذلك تنح الاشرار بالاعناق وضربوا طبول الصبر فلم يكن كلمح البصر حتى تحركوا الى درب كابل وخلوا الطريق للعابر . ولما خلت الجادة اخذنا طريقنا وانطلقنا وبعد برهة دخلنا زقاقاً في غاية السكون وبعد ان قطعنا مسافة مررنا بمخازن حطب فسأل زوجي الهندية هل نتوقف هنا فاجابته ولكنها انحنت وتناولت حزمة من الاخشاب المطروحة في ذلك الموضع فظهر زقاق آخر فاشارت بالدخول فدخلنا ومشينا طويلاً بشدة كلية في هذا الطريق الضيق المظلم بما فيه من الحفر التي كانت تعوق مشينا وتصعبه حتى دخلنا سقيفة كهوة العقاب مضيئة بمشاعل من خشب وهذا الخشب خاص في الهند بالاستضاءة بما فيه من المادة الدهنية التي توقد كالشمعة وكان الدخان المتصاعد من هذا المصباح الخشبي قد اظلم الفضاء اكثر من انارته . وما استفاد اهل هذه السقيفة من دخولنا عليهم لانهم استقبلونا بالانين والحنين وتلقونا بالاحتراز فبادلنا وإياهم كلمات انكليزية كانت سبباً لسكون خواطرنا . واستأنسنا من النار حيث علمنا ان المختفين في هذه الزاوية الهائلة ايضاً مثلنا في الابتلاء بالبلايا . ثم اطلعوا على حالنا وانا التجأنا الى ما منهم خوفاً من السيوف البواتر المسلولة لاراقة دمائنا . وكان هؤلاء الجماعة المجتمعون هنا كلهم من الانكليز اجارهم في هذا الموضع رجل من المجوس ترحماً لهم ورعاية لحقوق الانسانية مع المخاطرات التي تصيبه من ابنائهم اذا اطلع الجنود على ذلك ودار السقيفة واقعة خلف بيته . اما هؤلاء التعساء الملتجئون الى هذا المأمن فقد كانوا حفاة الرؤوس عراة الابدان كانهم زجوا في اعماق السجون وهم اكثر من عشرين نفراً . وشاهدت بين النسوان امرأة في حجرها طفل رضيع ترضعه فجلست بجنبها وتذكرت اني عند رؤيته وتأوهت تأوهاً شديداً بنهاية التحسر والتلهف وقلت ما على زماني لو جمع بيني وبين قرة عيني ومهجة فؤادي فنظرت هذه الضعيفة في وجهي وقالت « ما هذا التنهد الذي يدل على تأثر في النفس عظيم هل قتل ابنك ام فقدته لم تنظرين الى طفلي متحسرة »

فما قدرت على اجابتها ثم جلست بقربي مع هذا الطفل عندي وجلست تائهة

الضعيفتان في زاوية من الزوايا فقرّ بنا القرار الا زوجي فانهُ كان قائماً في وسط الفضاء مطرقاً برأسهِ الى الارض كأنهُ ارتكب جناية فاستحق التاديب او تصدى لامر فظيع يمسح جبين الخجل لاجلهِ . وكان انفعالهُ لاختفائهِ عندنا وهو يريد اللحاق برجال الكنترو للمشاركة في القتال وكنت افحص اطراف السفينة المظلمة واوقظ الاطفال النائمة لعلي اجد طفلي هناك وما زلت على ذلك حتى انتهيت عليهم واحداً بعد واحد وما وقعت منهُ على عين ولا أثر . وحينئذ وجدنا واحدة من الخواتين الانكليزية كانت لها نسبة مع اقرباء هذا الطفل الذي كان عندنا فعرفتهُ وتعهدت محافظتهُ وخلصتنا من قيد حراستهِ ووجدت تانك الضعيفتان نحوة من رفيقاتها فاتصلتا بها وما ودعتانا حين المفارقة

ما اصدق الحكماء في قولهم حيث قالوا « الانسان يبتلي بالكبر والخيلاء في وقتين من الاوقات . وفي حالتين من الحالات . الاولى حين يرفل في ذيل المنى . ويميس في ذيل الغنى . والثاني حين يكابد النوائب . ويعالج سكرات المصائب » فاعتراني من هذه المفارقة ارتياح ووجدت ووجدت في هذه الوحدة طمأنينة لاننا نحمل بعد ذلك اعباء مصائبنا الخصوصية ولا نحمل مشقات الآخرين وتكون تدابيرنا مصروفة الى انقاذ نفوسنا من لجج البلايا ولا تكون غصص الناس زيادة على همومنا فنتفرّغ للتخلص من حضيض تعاستنا الحاضرة ودفع صدماتنا الآتية

رأيت في احدى الزوايا شيئاً كبيراً من البالات البالية والعلف فاتكأت عليها فكانت مضجعاً رطباً احسن للاستراحة من الفروش التي كانت في بيت ذلك المسلم الهندي صاحبنا بالامس . ما اهنأ هذه الفرصة واحلاها لو دامت خالية من الاضطراب ولكن خواطرنا انعجمت من القلق وقتياً ونحن نفكر في امر النيلدان وتحول قداح الافكار في علة غيابهِ وسبب مفارقتهِ فان آمالنا كانت مرتبطة بارادتهِ منوطة برأيهِ وتزداد حسراتنا لحظة بعد لحظة من فقدنا العزيز فاظهرت لزوجي قلقي على عهد فقال وهو يريد اسكاتي « اعلمي ان هاتين الهنديين جاءتا معنا الى هذا المكان ولما اخذتنا من مأمننا رجعتا لتخبرا عهداً بحضورنا هنا وتجيء بعد برهة وتقر عيوننا بملاقاتهِ »

الفصل السادس عشر

﴿ ضرورة الترتيب في الاعمال ﴾

وعلى الانسان ان يشكر احسان المحسن الذي يتفقد احواله عند نزول الملمات وحدوث النائبات . هذا الرجل المجوسي الذي حقن دماءنا خدمه للعالم الانساني وحفظنا من التهلكة كان يطعم اضيافه في كل يوم وليلة مرتين وكانت خدمته تاتينا بقدرين من الارز المطبوخ واللحم المشوي وثلاث اوان كبيرة مملوءة بالماء وبمجرد وضعها على الارض كان رفقاؤنا يهجمون على الطعام فيدخلون ايديهم في القدور الى المرافق ويلمون العظم واللحم كائناً ما كان من شدة الجوع وسورته وكانت فعلتهم هذه داعية الى الاجحاف وعدم الانصاف فلما شاهد زوجي هذه القاعدة القبيحة قام حينئذ منتصباً وقال « كما ان الترتيب في الامور البشرية من اللوازم الضرورية في السعادة واوقات الرفاهية فهو ايضاً من اهم اللوازم في الذل والمسكنة والناس محتاجون الى النظام في حالتي الشدة والرخاء والمتمدنون لا يتركون رسوم الاداب وشؤون التربية سواء كانوا في ذروة جبال الاقبال او مصفدين في الاغلال . يراعون شروط المؤاخاة والمواساة - وينسون الظلم والمعاداة - وانتم ايها الحاضرون لكل واحد منكم حق معين في هذا الطعام وكلكم في هذا المأكول والمشروب متساوون . فليكن واحد منا رئيساً يقسم الاطعمة ويفرقها فياخذ كل ذي حق حقه ويعتدل الامر »

فسمعوا زوجي بكل شفقة ولسان الا جماعة ولكنهم اقاموه رئيساً فانتقى قطعتين من عيدان الشجر واخرج سكينة وجعل واحداً منها محدد الرأس كالشوكة والثاني شبيهاً بالملعقة واستعان بهما على مقصوده . كان يخرج الارز من القدر ويضعه في أكف الحضار التي كانت بمنزلة الاواني ثم يخرج اللحم ويضعه فوق الارز بترتيب . طال تعيشنا على هذه الصورة ثلاثة ايام - وعمل زوجي وان كان لم يوافق اراء الحاضرين في اول الامر لكن استحسنه الجميع في اليوم الثاني والثالث . وذلك شأن قوانين العدالة فانها يصعب اجراؤها في اول الامر وتأنف النفوس قبولها

في مبادي نشرها لكنها اذا اجريت وسلكت طريقها لا تنقضي برهة الاّ وتأتي بثمرات حلوة ونتائج حسنة ينتفع الناس بها وتقبلها الطبائع بارتياح والقانون رائد الامم ومصباح نهاها . وقد احدث ذلك بيننا وبين اولئك الرفاق نوعاً من الانس والالفة وفتح طريق الارتباط والاختلاط واغلت عقد الكروب عن القلوب فاحكي كل منا حكايته لصاحبه بحرقة قلب وتوجع فما كان في هذا الجمع رجل او امرأة لم تصبها سانحة من السوانح . فان الثورة حين اشتدادها في اليوم الحادي عشر والثاني عشر نكبت من هؤلاء التعساء فذهبت بابائهم وازواجهم وابنائهم واذاقتهم من الفظائع شيئاً كثيراً . ومن الغرائب ان اكثار المجتمعين هنا نسوان وما كان فيهم الاّ رجال قليلون فسألناهن عن ذلك فقلن ان محتسب دهلي دخل هذا الموضع قبل وصولنا باساعتين واخرج الرجال وقتلهم وابقى عليهن وما كان ابقاؤه هذا من ترحمه ومروءته لانه كان من المدبرين ودهاة العال فما ابقى على اولئك التعيسات الاّ للانتفاع منهن لياخذ فدية مهمة من الانكليز عند رد زوجاتهم وبناتهم بعد المصالحة وهذا هو السبب الاصلي لعمله

وبناء على ذلك علمنا ان نيران الفتنة خمدت بعد اضطرامها او شرعت في الانطفاء قليلاً من اليوم الخامس عشر والسادس عشر . وكان الهنود لا يباشرون قتل النساء ولا يتعرضون لهن واغلب هؤلاء النسوان من اللواتي قتل ازواجهن بسيوف الاشرار واطلقهنّ الهنود من غير ان يلحق بهن ضرر وفي اعتقادي ان الموت اهنأ من حياة على هذه الصورة وان الاشرار ما ابقوا على نفوسهن الاّ تكميلاً للمصيبة لينحن ويندبن مدى عمرهن ولو قتلن لكان اروح لهن

اما الرجال الذين أُخرجوا من هذا المكان وقتلوا فاليك شرح حالهم . لما اخذهم المحتسب ذهب بهم الى عمارة عالية من ابنية السلاطين الكوركانية على شكل محكمة عسكرية واستنطقهم على الاختصار ثم حكم بصلبهم بعد ان اقام عليهم الحجة واطلعنا بعد هذا على اعلان نشرهُ ذلك الشقي مضمونه « لما تبوّأ سلطاننا المقتدر المعظم سرير الملك وجلس على تخت اجداده العظام المعروف بتخت طاوس بعد دفع الانكليز ورفع اشقياء الافرنج صدرت الحكاية العالية من مصدر الجلالة الشاهانية بان لا يقتل احد نفساً من الانكليز ولا يشن رعاياه الغارة على اموالهم بل يحافظوا

على اغراضهم وصدور الاحكام بعد هذا التاريخ منوط بالاستنطاق · مربوط بحبال العدالة بريئا من الاعتساف " ومن الحوادث التي سمعنا اليوم ان جمعاً من اعاظم الرجال التجأوا الى عمارة السلطان في اليوم الثاني عشر فلم يقتلوا على الفور لئلا يحمل ذلك على عدم النظام فاحضروهم في محكمة الجناية ورتبوا مجلس شورى عسكرية واستنطقوهم وانتقدوا عليهم انتقاداً عنيفاً ثم امروا بقتلهم جميعاً · اما هذا السلطان الوفي الذي يناهز عمره الثانية والتسعين فقد كان اسماً بلا رسم وكانت السلطنة مخصوصة بابنه المسمى ميرزا مغول وكان غشوماً سفاكاً محباً لاقتحام الحروب والمغازي · وهذا المنصب من الجنود نصبته دولة انكلترة على الخدمة فعند وقوع الثورة تواطأ وابناه وطنه على زيادة الاستبداد · وكان يخرج بحكم الميرزا مغول الى المتواري في الزوايا ويعرض عليهم الاسلام فاذا قبلوا نجوا واذا امتنعوا قتلوا · ونذكر بمزيد الاسف ان عدداً غفيراً من ابناء وطننا قبلوا هذا التغيير ودخلوا حوزة الاسلام وبدلوا دينهم القديم · ولو بقوا على طريقتهم غير خائفين من الموت لارتفعت منزلتهم عند طلاب الحقائق

اقمنا في هذا الموضع خمسة ايام متوالية وازدادت تعاستنا من وسخ الابدان وعفونة الهواء وعظمت مصائبنا من تحمل هذا البلاء العظيم في هذه البقعة الجهنمية وتساقطت على ثيابنا التي من حرارتها الخبيثة بحيث كانت تغرق وتسقط فيا لها من هوة ما اضيقها واحرجها وورطة ما اصعبها واشدها · وكانت عندنا نقود كثيرة فاردنا ان نعرض على الخدمة قدراً منها لابتياع ملابس تستر ابداننا العارية ولم نجترئ على اظهار ذلك خوفاً من ان يطمعوا في اختلاس الوجوه فيقتلونا · هذا وزادت مسرتي من جهة بنتي الآن لانها خرجت من سكونها الدائم ونومها العميق وحصلت لها افاقة من حالة الخمود بامداد القوى الغريزية وشرعت تبكي وتذكر زوجها فشكرت الله تعالى لانه نجى بنتي من خطر الهلاك والاختناق والموت بمعارضة السكتة وأخذنا مع ذلك نتفكر في طريق الخلاص من تلك الهوة باتفاق آرائنا ودلالة عقولنا · والذي اقول هنا في حق هذه البنت ليس من جهة علاقة الامهات بالاولاد ووفور الحب القلبي الذي جبلتُ عليه في حقها ولا لما اشتهر في الامثال ان حب الشيء يعمي ويصم ولكننا لو تأملنا تأملاً دقيقاً مع الانصاف لوجدناها

مع حداثة سنها ذكية داهية واسعة الصدر جريئة في التدبير عند الابتلاء بالحوادث ماهرة في القيام بفرائض التخلص بحزم وامضاء عزم · ولولا انها كانت مبتلية بمكابدة شدائد النوائب وتحمل اعباء مفارقة زوجها لاجالت قداح التدبير في انقاذنا · كما انها لما فرغت من البكاء والنأم صدع قلبها وسكن اضطرابها الداخلي ابتدأت بالمشاورة معي ومع ابيها في الفرار فتضاربت اراؤنا في هذا الباب لصعوبة موضوعه واهميته

فقالت « ان الاليق بنا الترحال من هذه الزاوية المكتنفة بالاخطار اذ لا ثقة بما اقدم عليه البعض من الظنون والحسبان ولا يبعد ان يدخل المحتسب هنا مرة اخرى وان سلمنا نحن النسوان لا يسلم ابي بل يقتل مع هؤلاء الرجال وما كل مرة تسلم الجرة وقد قيل لا تسلم نفسك للتهلكة وانت قادر على انقاذها ولذا ارى ان تأهب للفرار بوسيلة » - فقال زوجي « انا من الامس الى الآن ما زلت افكر في ذلك وقد تطابقت عقيدة بني مع عقيدتي واني عازم على الفرار متى ارخى الليل سدوله واذهب الى دارنا الخروبة وانا على يقين ان الاوغاد ما تركوا فيها شيئاً يصلح لسد احتياجنا ومع ذلك يحتمل ان القى شيئاً من لوازم المعيشة واسافر من دهلي الى مدينة اكبراباد باي طريق كان » · فاجابته آكن « هذا راي صائب لا يرد عليه قط لكن ما الداعي للمفارقة بيننا هل يترتب على اتفاقنا في السفر ضرر » فرأيت رايها صواباً وقلت « لقد نطقت آكن بما فيه صلاح حالنا ونجاح قصدنا اي سبب يدعو الى سفرك وحدك بل نحن نوافقك في السبيل ونرافقك في السراء والضراء فاذا كان الطريق خالياً من المخاوف عبرناه سالمين وان ابتلينا بحادثة كنا في موضع واحد وذلك احسن من تفرقنا و بقائنا في ورطة الانتظار »

الفصل السابع عشر

﴿ موت الفيلبان ﴾

قال زوجي واظن الفيلبان ذهب الى دارنا ينتظر رجوعنا وقالت آكن

من اين علم ان ويلبام ليس فيها وقد رأيت البارحة في نومي ما يدل تعيين على اننا سنلتقي به واني سأتمتع برؤيته عن قريب واسأله تعالى ان يكون ما رأيته خيراً . فقلت اذا كان بناء الامر على التفاؤل والاستبشار بالخيال فلمَ لا اتفاءل بمستقبل ايامي انا ايضاً وأتصور ان ابي فيها واني سأتيمن بهلال محياه . وخلاصة الكلام اننا سكتنا خوفاً من اطلاع الحاضرين على مقاصدنا وفوضنا امرنا الى التقدير وجلسنا ننتظر ما تلد ليلتنا الحبلى بانواع المصائب . فما انقضت على ذلك ساعة الا وظهرت الهندية التي دلتنا على هذا المكان فقمت من مجلسي وقبضت على ساعدها وسألتها هل عندك خبر عن النيلبان اين هو . والعادة في اولئك الهنديات اللواتي يخدمن الانكليز ان يتعلمن عدة كلمات من اللغة الانكليزية لبيان المطلب الضروري اثناء المعاشرة لكنهن اذا اتفق لهن كلام طويل او وقعن في بيان مبهم لا يقدرن على تادية المراد وشرح المقصود . فاشارت الهندية بيديها ان الاشرار سلبوا النيلبان وقتلوه . ما اغرب حالة الانسان وما اعجبها فان المرء يطلب سلامة نفسه في اوقات الادبار اكثر من اوقات السعادة واني اقول ذلك مع غاية الخجل اني تألمت من موت هذا الرجل بقدر تألمي من النتيجة التي ترتبت على ذلك . فان هذا الرجل الصديق اوفى بعهوده وراعى حقوق النعمة وشروط الوفاء واتقى نفسه لاجلنا في الموارد الهائلة حتى ادركه الاجل المحتوم واستوفى مداه المعلوم

اما الآن فلا يجدي التأسف والتحسر نفعاً وقد صار عدماً لا ينفع . وفي اثناء ذلك نظرت الهندية الى ما حولها واومأت ان نتبعها في الخروج بدون توقف او توان فخرجنا معها من مدخل ذلك الزقاق المظلم ودخلنا الشارع العام وفارقنا بهذا الوضع رفقاءنا القدماء واعترتني من تلك المفارقة غصة باطنية تأثرت منها . لكننا كنا مجبورين ان نفارقهم اذ لا يجوز لاحد ان يطلع رفيقه على قصده في هذه الحالة . تصوروا ايها المطالعون سفينة تتقاذفها الامواج وهي تمخر في وسط بحر هائج هبت عليها ريح عاصفة مزقت شراعها واخرقت اجزاءها والطوفان يزداد شيئاً فشيئاً حتى اصبحت على وشك الغرق يحدر بسكانها الموج الى مهاوي البلايا ويديرها نوتي ضعيف عجز عن انقاذها . وهي مع ذلك محاطة بكثير من سفن الاعداء القوية فلا نعلم كيف تخرج من المخاطر سالمة . وقد انحصرت طرق الفرار

زورق صغير لا يسع اكثر من ثلاثة اشخاص الى ساحل النجاة · وهل يمكن والحالة هذه ان يلاحظ احد حقوق الانسانية ويراعي مراسم التمدن والمروءة · ان المسافرين ان عجلوا في ركوب الزورق لينجوا بنفوسهم باتي تدبير كان ومن تقدم وتفوّق كان اعقلهم - هذه حالتنا التي تشاهدونها ولو اطلع رفقاؤنا على مقصودنا لحالوا بيننا وبين المراد وسدوا سبل فرارنا وذهبت تدابيرنا هباء منثورًا

فجدد هواء المعبر قوانا واستنشقنا منه ما ردّ علينا الحواس واذهب مضرات الاهوية العفنة التي ابتلينا بها في تلك السفينة وكنا كميت يخرج من القبر ويكثر وجده ولهفة في حياته الجديدة · وما زلنا نجد في السرى في اثر الهندية حتى وصلنا كوخًا صغيرًا فصاحت بصوت البوم واجابها صوتٌ مشابهٌ له على الفور وظهر على اثر ذلك اربعة اشخاص من خلف الجدار واستقبلونا وهم بالالبسة الطويلة البيضاء · ونظرًا لكثرة ما عانيت من المصاعب وقاسيت من النوائب والتجارب ايام تعاستي وابتلائي ببوائق الزمان والمرارة ما ذقته من كؤوس الايام مدى عمري وطول حياتي فيصح ان تكون اقوالي وافعالي قاعدة تدور عليها القواعد واصلاً تشتق منه الفروع ولذلك اقول ان الانسان كما ينبأ بالانقلاب الذي يصيبه عند سعادته فهو كذلك ينبأ به عند تعاسته كأن القلب يتأثر من وقوع الحادثات شيئًا فشيئًا فيعلم المرء بحدوثها قبل ظهورها · ونحن لما شاهدنا هؤلاء الاشخاص القادمين الينا في ظلمة الليل حصل في قلوبنا ابتهاج فانفصل واحد منهم وجاءنا منفردًا فصحنا باعلى صوتنا هذا وليام وظهرت على وجوهنا لوائح السرور وامارات الوجد والانشراح واتحفنا بوابتهاج الساري بالقمر فيالها من فرحة سارة · فما لبثت بنتي ان قربت منه فتعانقا وتشاكيا الم الهجران

لقد يجمع الله الشتيتين بعد ما   يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

وترقرقت حينئذٍ دموعها في عينيها وما قدرتْ على اخفاء ما عندها من لواعج الاشتياق · نعم وليام هذا هو الذي كنا نتصور انه احترق في بارودخانه اورالة بخبط دمه وهو الآن في صحة وسلامة واقف امامنا · ولكون الموقف غير مناسب لبسط الكلام في الحوادث الماضية · قبضت آلن على يد زوجها وتقدمت فقال وليام عندئذ عجلوا في قطع الطريق · ما قطعنا اكثر من الف قدم حتى انتهينا الى

عجلة خالية وجدنا فيها اربعة ركائب مع اربعة من الخدمة كل منهم ممسك بزمام
فسحبنا اصحابها باشارة وليام وركبناها وتركنا المشاة وسرنا نخترق درب كلكوتا .
فلما وصلنا باب المدينة رأينا هناك رجلاً هندياً من محتفظي هذا الباب من احباء
وليام وكان وليام قد خابره بشأننا فبمجرد وصولنا فتح الهندي باب المدينة
فخرجنا. وما وصلنا وسط الجسر الممدود فوق شعبة من نهر جمنا حتى ارتفعت من
ورائنا اصوات البنادق ووقعت رصاصاتها حوالينا . فقال صهري ابرز صديقي
خبث طينته وسوء فطرته فتح الباب واخرجنا ثم ارسل رصاصاته لتشيعنا ولكن
الطاف الله حفظتنا وحسن القضاء وقانا وقطعنا الطريق سالمين

وفي اثناء الطريق اخبرنا وليام بالحوادث التي جرت له اجمالاً وذلك انه لما
نجا من الهلاك وانقذ نفسه بعد احتراق البارودخانه لحق باستحكام الجنرال كراو
بعد جهد جهيد. وكانت العساكر المتوقفون فيه ينتظرون ورود نجدة برئاسة
السردار الانكليزي المسمى (بارنارد) ولما وصل الى ذلك الاستحكام اطمأنت
قلوبنا وكان يدخل المدينة في الليل متنكراً مع رجلين من الهنود كانا يسلكان معه
طريق الصداقة ليفحص الزوايا والمسارب لكن مساعيه لم تجدِ نفعاً فاصبحت
خالية من الفوائد وقد كان ذلك ايام اختبائنا في السفينة . ولما يئس من كوننا في
دهلي عزم على الذهاب الى دارنا خارج المدينة كان رأيه هذا من الالهامات الغيبية
فانه لما ذهب اليها وجد الفيلبان فيها يهيئ لوازم سفرنا ويريد تخليصنا بتمهيد
وتدبير فاطلعه الفيلبان بأمرنا وكان هذا الرجل الوفي قد هيأ اسباب المسافرة
من كل الجهات فاطلع الساكنون بجوار تلك الدار على نيته واخبروا المحتسب
الدرير بقصده وقالوا ان هذا المنافق مع كونه من الهنود يساعد اشخاصاً من الانكليز
ويحتفظ بهم والآن يريد اخراجهم من دهلي خفية فالقى القبض على محمد بغتة من
غير سابقة علة او لاحقة خصومة وامر بصلبه فصلبوه على اغصان شجرة (ناروت)
في ساحة بيتنا فيالها من شجرة طالما تفيأنا ظلالها الوارفة ناعمين فاصبحت الآن
عوناً على اعدام نفس زكية كان عليها جلّ اعتمادنا . وبالبتنا كنا مطمئنين من المخاوف
لنستوفي حق البكاء على هذا الرجل الذي قضى نحبه في خدمتنا . لكن يحول بيننا
وبين قصدنا تورطنا في المهالك وما تركت حالة الدهشة موقعاً لهذه الملاحظات

والنائرات دل ان البكاء حينئذ حق لي الاحياء لا الاموات

ولا بد لي من ان اذكر هنا مثالاً من الحسد الذي جبلنا عليه نحن النسوان وورثناه من امهاتنا جيلاً بعد جيل - وذلك ان صهري وبنتي اتفقا في الطريق وكانت لها في كل خلوة جلوة وفي كل خطوة حظوة - وقرت نواظرهما بملاقاة زوجها وثبتت الشوق وتستغرق جهدها في بيان لاعج الهجران واستيعاب صبابتها وكانا في نشاط وانبساط يكادان يطيران ولا ينظران الينا الا طرفاً . وكنت حين اخاطب صهري في قضية من القضايا قلما يعبأ بسؤالي لانه كان غريقاً في بحر التلذذ بملاقاة زوجته مترددا في ميادين العواطف فهاج حسدي واشتعلت نيرانه في خاطري حتى قلت يا ليتني مت بين يدي الجنود ولم اشاهد عدم الشفقة من صهري في حق بنتي او لم يكفني الجرح حتى ذر عليه الملح

الفصل الثامن عشر

﴿ الطلل الدارس والاثر الطامس ﴾

فتندمت عند ذلك واخذت ساعد وليام اخته الحديثة من شدة الغضب حتى نبهته قليلاً فسألته هل عندك خبر عن طفلي ودايته - فاجابني جواباً ملأ قلبي سروراً فاورقت من استماعه شجرة امالي وزالت غصتي وانطفأ حسدي لان جوابه دلني على سعادتي حتى اردت تقبيل رجليه من غلبة الفرح

وذلك انه اجابني ان ابنك سالم عند دايته وهما في بيتكم القديم ينتظران وصولكم فزالت آلامي وتعبي وتسببت المشاق التي تحملتها في تلك الايام وبدلت هذه البشارة ضعفي بالقوة وعادت اليّ صفات الملائكة وصفت طويتي وطفقت الوم نفسي على ما فرط مني واستغفر الله فركضت فرسي وقد استطير فؤادي من الحبور واسرعت عساي ان ابلغ بيتنا فبلغتهم كأني طائر يشتفي لرؤية افراخه . فمازلت اقطع الطريق الى ان وصلت حوالي بيتنا وكانت لنا فيه عمارة عالية قبل وقوع الثورة عشنا فيها اعواماً عديدة بنضارة عيش وسعادة فلم أر فيها ولم اجد الا دمناً واطلالاً . يا لهفي على

تلك الدار العامرة التي لم يبق منها اليوم الا رسم دارس لعبت به عواصف البلايا
واحاطت بها الوحشة بعد ما كانت آنسة يفوح مسك النعيم من عرصاتها واسفي
على سعادتنا الماضية وجمعيتنا التي حكم عليها الدهر الخؤون بالتفرق والشتات

وكنت اذا عثر فرسي باحجار تلك الاطلال حصل في قلبي تأثير عظيم . وكان
الليل قد ارخى سدوله واخذت جذبة ملاقاة ابني العزيز بتلابيب اشواقي وكنت من
الجهة الأُخرى نافرة من ملاحظة تلك الخرائب الدالة على تعاستنا العنسف في الدخول
والخروج وقد انطمست معالم تلك الدار فلم اقدر على تخصيص مدخل فيها . فصرت
اخبط خبط العشواء اقدم رجلاً وأُؤخر أُخرى والبس فيها الرمن المكان ولا ضوء
سراج ولا مسرب الضياء يستدل بها على من فيها . فابتليت بوحشة عظيمة ضاعفتها
تلك الظلمة الحالكة . وكنت اعملت باصري في تلك الظلال ذات اليمين وذات الشمال
لعلي اجد علامة فلم ازدد الا ضلالاً . فلما يئست من الوقوف على مرادي اعملت قوة
سامعتي وحددت اذني عساي ان اسمع اصواتاً دالة على وجود متنفس هناك فما سمعت
الا حركة الهوام فلبثت في مقامي باهتة لا ادري باي وسيلة اتوصل الى ابني وقرة عيني
وفيما انا في هذه الحال واذا زوجي وصهري وصلا وترجلا فترجلت انا ايضاً وربطنا
افراسنا بالحبال فتقدمت انا وصهري والبام على زوجي وبني واخذنا نقطع
الطريق وصهري يهدينا ولو كانت دارنا على حالتها الاولى لوصلنا الى المراد في اقرب
وقت اما الآن وقد خربت هذه الابنية الرفيعة ولم يبق فيها جدار ارتفاعه شبر ولا
علامة يستدل بها على الامكنة الاصلية الا شجرة نارون العظيمة فانها كانت لا تزال
قائمة في مقامها الاول من غير تغيير وقد تهدلت اغصانها وانتثرت اوراقها فملأت
فضاء الدار . وكنا نمشي متلمسين نحاذر في وضع اقدامنا على الارض ونتنفس
بخوف لئلا يطلع جنود تلك الجهة على وجودنا

وخوفاً من الوقوع في حفرة او جراخذ بعضنا بايدي البعض الآخر وما زلنا
نذهب حتى وصلنا مركز دارنا ومحل سكنانا القديم فلم نسمع الا هبوب الريح وحفيف
الاوراق واغريد الطيور وحركات الدواب الصغار بين الاحجار مع ما نسمعه عن
بعد من نباح الكلاب والارانب . ولما قربنا من ساق شجرة النارون طرقت
سمعنا أنة حزين زادت وحشتنا لا سيما انا فان خوفي كان اكثر من خوف الجميع .

فصوب زوجي وصهري مسدسيهما نحو الصوت وتأهبا للدفاع وكان ذلك الحين آتيًا من جهة عظيمة ثم رأينا شبحًا كبيرًا يقرب منا رويدًا رويدًا حتى وقف على خمس اقدام فصاح وليام لا تخافوا هذا فيلنا ذلك الحيوان الفهيم يستقبلنا ويبدي شوقًا للاقانا واسفًا لموت محمد . فقرب وحيّى كل واحد منا بخرطومه فلاطفه زوجي ومسح خرطومه بيده وقال له باللغة الهندية « ما فعل هنا » فبارحنا بغتة والتصق جثته بساق الشجرة ورفع خرطومه مشيرًا الى جهة [illegible] . ونظرًا للالفة التي كانت بين هذا الحيوان وبين محمد فلما صلب على هذه الشجرة وهو يراه تحت الشجرة ظل يحن ويئن ولا يترك جثته عرضة للسباع . مضى لي كلام في مزايا الفيل واقول فوق ذلك انه مع عظم جثته له شعور يناسب حركته وتمييزه اكثر من تمييز سائر الحيوانات يدرك الخير والشر ويعرف الحب والبغض ولا ينسى اللطف والخشونة . اشتريناه في الهند فمكث عندنا بضع سنين وكانت قيمته تزيد على الفي روبية ولما قتل الاشرار محمدًا سعوا في اخذه فما قدروا لانه كان يمر بالنهار الى الصحاري والغابات ويأتي في الليالي لحراسة جثة خادمه القديم . والخلاصة اننا وجدنا مدخل البيت بدلالة هذه الشجرة وكان صهري قد اوصى الذين جاؤوا معنا من المشاة أن يقوموا بالمحافظة في اطراف البيت . وصبر فلم تمض ثلاث او اربع ثوان حتى ظهر انا سراج من داخل سرداب كان انبارًا لبعض اللوازم البيتية فدلنا على الرهط الضوء الضعيف وليعلم المطالعون ان مقصودي منحصرًا في ايجاد طفلي فقط . ايها الامل انك شيء عظيم . وبمجرد وصولي السرداب رأيت ابني العزيز نائمًا في زاوية من زواياه فهرولت وكدت من شدة شوقي ان انقضّ عليه كالباز . واردت ايقاظه فقالت دايته لا تعجلي ودعي طفلك نائمًا يستريح ولا توحشيه . فقعدت عنده واخذت يده اللطيفة بيدي وقبلتها قائلة اي بني طالت جوبتك . ونشادت اوبتك . اين كنت . وبأي ارض قطنت . انقطعت عن لبي الدجى . وعن قلبي المرتجى .

اقر هذا الزمان عيني   بالجمع بين المنى وبيني

فنسيت بلاقائه ما مرّ بي من بوارح السفر . لاني كنت انتظره كما تنتظر الارض وسمي المطر . ولو اردت تفصيل ارتياحي لضاق الوقت وفاتت الفرصة على ان ضيق المقام لا يسمح بذلك . فما طال بي هذا الامد حتى اوعز الي زوجي ان نتكر بالابس

المفقود . وكانت الداية تقول لما اقتحام في اول الثورة الى دار القاضي وشاهدت اضطرابكم وتورطكم في البلايا ايقنت انكم لا تخرجون منها بسلامة فقلت في نفسي اني طالما تحملت مشاق تربية هذا الطفل من اوان طفوليته وحملته على كتفي من حين نشأته فلا تدعني علاقة الحب التي حصلت بيني وبينه ان اتركه هنا فخرجت من الدار خلسة وقصدت هذا المكان وأعلمت صهري بقدري ليخبركم بحالي وارده اليكم طفلكم اذا افرج الله عنكم . وها اني اسلم هذه الامانة النفيسة والوديعة الثمينة اليكم ويكفيني سعادة ان الله وفقني الى هذه الخدمة

فلبسنا تلك الالبسة وطلينا وجوهنا وسواعدنا وارجلنا بلون اصفر كثيف مشابه لالوان الاهالي واخذنا ما نحتاج اليه من المأكول والملبوس مما اعده لنا الهندي قبل موته وحملناها على احد الافراس ونحن كمسافري البحر اذا اقلعوا في السفن انقطع رجاؤهم من كل الجهات واصبح زمام حركتهم وسكونهم في كف ربانها ونوتيها فوضعنا ازمة اختيارنا في كف ريام وصرنا منقادين لاوامره فلما حملت الاحمال وحضرت المراكب اقبل الينا وقال اركبوا الآن واقطعوا الطريق بمزيد التعجيل واذا بعدتم من دهلي خمسة فراسخ تبلغون ساحل نهر (جمنا) وهناك غابة كثيفة الاشجار تدخلونها وتوقدون كبريتاً فتجدون فيها بهذه العلامة ملاحاً استأجرته ليحمل ثقالكم معكم في سفينة شراعية ويكون دليلاً لكم الى مدينة (آكرا) واسأل الله القادر المتعال ان يحفظكم في حالتي الحل والترحال . اما انا فسأذهب لمقاتلة الاشرار الى آخر حشاشة تبقى فيّ حفظاً لشرف انكلترا وعلمها رافعاً في دهلي ومحاماة عن ناموسي العسكري .

الفصل التاسع عشر

﴿ مساعدة الطالع ﴾

كنا الى الآن نتصوّر ان صهري لا يفارقنا ويكون بعد ذلك رفيقاً لنا وعوناً لضعفنا فلما سمعت آكن ام المارقة صاحت وامسكت ذيل زوجها باكية .

فوقع وبايام بين محظورين لايدري ما يفعل فمن جهة لا يقوى قلبهُ على المفارقة ومن جهة اخرى لا يريد ان يتخلف عن الحرب لان القانون العسكري يجبره على الذهاب واللحاق برفقائهِ . اما بنتي المسكينة فلا يهمها امر القوانين ولا شرف الخدمة او حفظ الناموس وانما هي تطلب وجود زوجها لنفسها خاصة ولا تبيع حظ الفاني العاجل باي خير آجل . فلما رأى وبايام انهُ لا يقدر على ارضائها جذب ذيلهُ من يدها وطفق يعدو نحو الدرج لينزل الى دهلي فبينما هو يريد الخروج واذا بواحد من الخدمة معهُ وقال اطفئوا السراج لاني شاهدت فرساناً قادمين الينا فسألهُ صهري هل علمت عددهم قال يظهر من صهيل خيولهم انهم نحو العشرين وما أتم هذا الكلام حتى اخبرنا الآخر ان الفرسان احاطوا باطراف البيت . فصاحت بنتي وقالت « لو قتلنا هنا جميعاً لكان احسن من الفراق ومن حسن طالعي ان الجنود حاصرونا ليسد طريق الفرار عن زوجي »

ونظراً لاشتداد الظلمة وتردد الفرسان في محاصرة تلك الجهة تحفزنا للفرار ورأينا الغنيمة في النجاة فخرجنا متوكلين على الله وقصدنا سرجهة وما زلنا نخبط في ذلك الديجور حتى وصلنا ساحل نهر جمنا وهو الطريق الذي اخترنا فيهِ الدرويش مماسنا القادمة منذ بضعة اسابيع فقابلت سعادة ايامي السالفة بالشدائد الحالية . وكنا نسمع انين الليل من خلفنا عن بعد الى مدة وظهر لنا انه متأثر من مفارقتنا . اما سبب هجوم الفرسان ومحاصرتهم ايانا ان مستحفظي الباب اخرجونا من دهلي بتطويع صهري وبعد خروجنا اعلموا الاهالي بفرارنا من هذا الطريق فارسلوا هؤلاء الفرسان في اثرنا للقبض علينا . وما زلنا نصل الآساد بالتأويب حتى بعدنا عن دهلي مسافة طويلة وبلغنا غاية صغيرة فاشعلنا كبريتاً فاجابت ذلك الضوء شعلة نار ظهرت بين الاشجار واستقبلنا شخص اشار علينا بالركوب في قارب صغير كان هناك فجلسنا فيهِ وجرى الماء بسرعة . وكانت المسافة بين دهلي وآكره ١٢ فرسخاً فقطعناها في ستة ايام . وكنا نطوي الطريق من اول النهار الى آخره وننزل في الليالي على الضفاف البعيدة عن العمران

ونظراً للدهشة والتعب الطارئين علينا في اثناء النهار من خوف الطغاة واشتداد الهاجرة كانت الليالي نعمة عظيمة لنا وواسطة لراحتنا وكلما تقدمنا وجدنا

الطريق محفوفة بالمخاطر والثورة قائمة ورأينا الفرسان والرجالة العابرين من ضفتي النهر يقتلون الافرنج الذين يرونهم في الطريق · وطالما هددوا ملاحنا ليسوق السفينة الى الساحل لكنه كان لا يعبأ بتهديدهم · وكانت تاتينا بعض الاحيان زوارق صغيرة بين صاعدة ومنحدرة يريد الاشرار الساكنون في قرى الاطراف يبحثوا عنا · ولاختفائنا في السفينة اشد الاختفاء كانوا لا يشاهدون لنا اثرًا وفي عصر اليوم السابع نزلنا عن السفينة الى الضفة اليسرى وقد غربت الشمس وانعكست اشعتها اللامعة الحمراء على منائر جامع أكبر فازداد رونقها وبهاؤها · وهذا المسجد من احسن مساجد الهند وضعًا وامتنها بناء · واشرفنا على القصر المرمر الذي بناه أكبر شاه الهندي وهو الآن من استحكامات الانكليز · وبعد النزول وجدنا في هذا الموضع سفنًا وزوارق صغارًا قد رست في ساحل النهر فعرفنا ملاحوها واخبلوا عرفانهم وكان وليام يكلم باللهجة البنكالية بكل فصاحة كانه بعض ابنائها فكالمهم بها فعلمنا ان الشغب يتزايد في هذه الانحاء والانكليز محصورون في قصر المرمر ينتظرون وصول نجدة من الله آباد فتحيرنا في امرنا فاذا دخلنا المدينة لا نجد طريقًا الى الاستحكام الحربي وان حططنا الرحال واردنا الاقامة لا نطمئن من الابتلاء بالنوازل على اننا نعلم يقينًا ان الطغاة سيكتشفون امرنا ويقتلوننا فلنا ان نغتنم العجلة في الحركة قبل وضوح الامر · ومن اي الطريق يا ترى يصلح لنا الفرار

وفي آخر الامر تعلقت ارادتنا ان ندخل الشارع الاعظم فانه معبر البريد والنوافل عسانا ان نلتقي بعساكر انكليزية فنلحق بهم · وكيف نتمكن من ذلك بلا مراكب · فاجمعت الآراء على ركوب السفينة وقصد منحدر النهر للبلوغ الى مدينة (كاونبور) التي فيها الجنرال (ويلر) سردار الانكليز فلم يوافقنا الملاح على ذلك وأبى الامتثال فقلنا نعطيك الف روبية عن كل رأس فامتنع وقال ما سلكت هذا النهر ابدًا ولا احسن سوق السفينة فيه · فقلنا ان كنت لا تقبل فاسمح ببيع القارب نسوقه بانفسنا فامتنع من هذا ايضًا · وكان مقصود ذلك الطامع المخادع ان يبيع قاربه حسب مطامعه لما رأى من اهتمامنا الشديد في الخفاء نفودنا لتكون مستورة من وقوف الغير علينا وكنا نود ان اكياسنا خالية وزادنا روتنا كافية · لكنه لما اشتم رائحة الروبية اصر على الامتناع حتى نقدناه ثمنه خمسماية روبية ولا يشتريه احد غيرنا باكثر من مائتي روبية

وبعد قطع المعاملة اصبح من الحزم ان لا ننتظر طلوع الشمس بل نتباعد من اكره قبل الصبح · وحينئذ جاءنا رجلان من الملاحين وتعهدا بسوق سفينتنا وان يكونا عونًا لنا في بلوغ المقصد فرد زوجي طلبهما وما قبلهما · اما انا فلخوفي على ابني وبنتي من احتدام الحر في النهار وشدة البرودة في الليل كنت مصرة على ان يستأجرهما زوجي لهذه الخدمة · ولكن تجاربي في حق الهنديين كانت صحيحة تتناول الظواهر وتقصر عن البواطن · أرى صورة الاشخاص مرآة لسرائرهم · وقد كنت اشاهد في بشرة هذين الملاحين آثار صداقة ومروءة ولم يخطر لي انهما ينويان تغريرنا وكنت اظنهما لو ارادا الخيانة لما استطاعا الذهاب الى الاشرار حوالينا واخبارهم بمكاننا · واخيرًا رضي زوجي وصهري فاستأجراهما بالرغم عنهما وحلفاهما بهاوودا ان لا يخونا ولا ينقضا عهدهما (بهاوودا اله من آلهة البراهمة وعبدة الاوثان ولهم في حقه عوائد وخرافات مضحكة مثل آلهتهم المسماة برهما · وفيشنو · وسيفا · « معرب ») فحلفنا بمعبودهم ونحن غافلون انهما يضمران عداوتنا وان طريقتهما مخالفة لطريقة البراهمة ونحن لجهلنا اختلاف الفروع والاصول المذهبية قيدناهما بهذا الحلف الخالي من النتيجة المأمولة ولا ندري انهما من معارف اللصوص الذين يشتغلون بالسرقة على شواطىء انهر الهند · وخلاصة القول اننا تحركنا من مقامنا بريد الاختفاء وكان مرورنا من محاذاة قلاع اكره · ولما وصلنا هنا تمهلنا قليلاً فوق الماء لعل الانكليز المتحصنون فيها يروننا ولما يئسنا من تلك الاشارة وكانت الشمس على وشك البزوغ بعدنا عن المكان خوفًا من الاشرار

كنا في راحة منذ ركوب هذا الفلك لان العريش الذي يظللنا وسيع ويمكننا في خلال ذلك تغيير الملابس اذا دعت الحاجة اليه وكان زوجي وصهري يخرجان الى ساحل النهر يصيدان الببغاء والطاوس وبعض الطيور المائية فنشوي لحمًا طريًا نتغذى به · والمسافة الواقعة بين اكره وكاونبور من طريق الماء سبعون ساعة وهذان الرجلان يسوقان السفينة بتأن وتأمل جدًا وفي اليوم الثاني انكسرت سفينتنا بقرب الضفة اليسرى في موضع تقاطع الساحل الخط العمودي ودخل فيها الماء فنزلنا واخرجنا منها بعض اللوازم لئلا تغرق واستمسكنا بعروة الفكر في جهة انكسارها وكيف انها انكسرت في هذه النقطة من غير سبب · فما ادركنا سبب ذلك وانما جملة

على ضوء الطالع وبالجملة اننا صعدنا الى غابة واقتحمنا ثمة قطعة ارض مسطوحة خالية من الاشجار واخترناها منزلاً لنا ولما اقبل الليل اوقدنا ناراً لندفع أذى البعوض وشر السباع ثم اكلنا عشاء مختصراً من بقايا طعام اليوم واقمنا شرائط العبادة . ولما قرب وقت النوم قال زوجي يجب ان يكون كل منا حارساً لنا بنوبة معينة الى الصبح ونكون مطمئنين . ومن يقدر على النوم وقد شوشت تصورات الحوادث الماضية خواطرنا بحيث لا نقدر على تمديد الاعضاء فضلاً عن النوم

وكنت اتصور كيف يمكن لنا المدار بعد ذلك هل نجد زورقاً لمواصلة السير . وهل ننهض من وهدة الذل والمسكنة . وهل يرجع الينا عزنا السالف فتناومت بهذه الحالة لتتني زوجي وبني اثري في النوم ويستريحا واظنهما ايضاً تناوما رعاية لخاطري والذي نام عندنا بزيادة راحة وفراغ بال ابني ونل وكان صهري خارج الخيمة مشغولاً بالحراسة لان نوبته تنتهي قبل نصف الليل بساعتين ونوبة زوجي الى اربع ساعات بعده وبعدها نوبة حراستي الى آخر الليل

الفصل العشرون

طائفة ثوراك الطاغة

اما الرجلان اللذان معنا فانهما القيا ثوبيهما على رأسيهما في زاوية متقاطعة بالخطوط المائلة الاستوائية وتبين لنا انهما ناما . وكنا قبل النوم قد جمعنا شيئاً كثيراً من الاغصان والاوراق والنباتات اليابسة وتركناها خارج الخيمة عند موقد كانت هناك لنوقدها تباعاً دفعاً لضرر الوحوش والحشرات اللادغة . فقال احد الرجلين «انا في الغداة ابحث عن سفينة تحملكم» آه ما اطول الليالي التي تمر في خط الاستواء . كنت في الخيمة مستلقية على قفاي جاعلة صدري بساطاً لطفلي كأني في سكرة من نوارد البلابل وتراكم المخاوف فتارة اخاطر بنفسي في مدهشات الرزايا واخرى استعمل ترياق الصبر ومرهم الثبات واسلي نفسي الحزينة واقاوم الاهوال . ومع ذلك فلم اكن غافلة عن حالة زوجي وبني اعد انفاسهما واجس نبضهما واحصي دقات قلبيهما . واذا

رأيت النبض ودقات القلب منتظمة على حسب القواعد الطبية والموازين الطبيعية اطمئن بالي واذا رأيت احداً في انقلاب واضطراب اناوى كحية اصابها جرح والذين هم مشغوفون بحب العائلة معتنون بأولادهم يعلمون ما اقول ويدركون ما لو اردت شرحه لطال الكلام . ولما قربت نوبة زوجي خرج لحراسة ودخل صهري ونام في مكانه واملي بشفقة زوجي علي مخافة ان يغلب علي النوم في نوبتي المعينة ولا يوقظني للحراسة رعاية لي ويستمر في عمله فعولت على ان لا انام ولكن الطبائع البشرية عجيبة المرء حريص على ما مُنع فقد كنت من اول الليل الى مضي ساعتين من نصفه مطلقة العنان في النوم فما مالت عيني اليه ابداً واما الآن وقد حانت نوبتي وقربت ساعة حراستي اجد نفسي مائلة الى النوم وقد غلب علي بحيث لا اقدر ان اكون حافظة على زمام اختياري . فما مضت عشر دقايق الا وامال النعاس رأسي فما منعني هبوب النسيم من النوم مع اني كنت اريد ان افوز في جنح الليل بمشاهدة بديع الخلقة ونوادر الطبايع ولكني نمت ولم يوثر فيّ زئير الليوث . ولا بغام الظباء . ولا ضغيب الارانب . ولا نباح الكلاب . ولا صرصرة الهرة . ولا جلجلة الثعالب . ولا طيران الخفافيش . ولا حفيفة الهوام بين الاعشاب . ولا تلاطم امواج جمنا . ولا تكاثف الظلمة وادلهامها في هذه الليلة الليلاء . ولا مطلع الكواكب واحصائها . ولا غوارها وركودها . وما اجدت تفكراتي في تلك البدائع فائدة فران على جفني الكرى . وعراني منه ما عرى . على ان مشاهدة هؤلاء النعوت . مما ينتج الوله والبهوت . وفيما انا في عالم النوم كأن يداً بهتني فقمت من النوم مذعورة وطفقت امسح عيني وانظر الى جوانب الخيمة فاوجست في نفسي خيفة وتصورت شخصين يجولان في اطراف الخيمة فغلبت عليّ الواهمة انهما ربما كانا من طايفة ثوك المتقدم ذكرها وهم الذين يعتبرون خنق الانسان من غير تابعي مذهبهم ثواباً دينياً . فاستولت عليّ هذه الفكرة بدرجة كان جسمي خلا من الروح فما بقيت فيّ قوة الحركة والقيام وفي اثناء ذلك بكى طفلي وانتبه بصوته زوجي وصهري ونادياني فرأيا وقلق وحشتي فاظهرت لها التفصيل فجزا في وثبا الى الجنون وكانت النار الموقدة في خارج الخيمة قد انطفأت من ساعة فالقيت في المستوقد حزمة حشيش فثبت النار والتفتنا الى الرجلين اللذين كانا دليلينا وقد ناما في مقربة من الخيمة فاذا هما قد قاما لا نلاقيها ولما رأيانا انتبهنا هربا وغابا عن انظارنا

فعلمنا انهما من فرقة ثونشا الطغاة وانهما لما احسا ان عندنا شيئاً من النقود والاحجار الثمينة كسرا سفينتنا عمداً وانزلانا في هذا المنزل البعيد عن القرى والمدن ليجهزا علينا دون مانع ويغتنما نقودنا ويهلكا نفوسنا · لكن لطفه جل وعلا شملنا ببكاء الطفل فابطلا قصدهما الفاسد وفرّا فرار الآبق · فنجونا من خدعتهم سالمين ·
وهل يمكن النوم بعد هذا وقد بقيت لطلوع الصبح ثلاث ساعات وبرد النسيم فقام وبل وجلسنا نحن الثلاثة بجانب الموقد نتشاور ونمهد طريق الغداة ونتفكر في وسائل الحركة وجهات العزيمة وكانت تجري خرق تامة بالطرق والشوارع فقال نحن الى الآن لم نقطع نصف طريق كاونپور ونحترز بقدر الامكان من دخول الطريق العام لان الطغاة قد ملكوا هذه الجادة · ولو كنا نزلنا حين انكسار السفينة على الضفة اليمنى لكان احسن لنا لخلوّه من العمران وخطر العابر والمتردد لكننا كنا مجبورين على النزول بهذا السمت لان هذين الخبيثين اوردانا هذا المورد وليس لنا حق ان نشكو سوء حظنا فان انكسار السفينة كان مبنياً على قصد معين كما اطلعتم عليه · وقد رأت ارباب التجارب والسياحة في كثير من الاوقات ان هؤلاء الاشخاص الذين يباشرون قتل الخلائق يشكلون ادارة لعملهم هذا في عبارة سبعة شركاء لكل منهم وظيفة بناء على السنن التي اخذوها عن رؤسائهم وعلمائهم والملك الديان.

(الاول) مرشدهم ورئيسهم الذي يلقبون الواضع الطائفة (الثاني) الذي يخدع الناس ويلقي الشراك (الثالث) رجل مرتاض متعبد شغله القيام بقراءة الادعية المخصوصة بجنب معبودهم عند اهلاك النفوس (الرابع) و(الخامس) رجلان يشتغلان بحفر الحفر العميقة ليطرحا فيها اجساد القتلى (السادس والسابع) هما المكلفان بخنق الذين خدعوهم بحبل مخصوص لهذا الامر · وطريق الدفن هكذا · يطرحون الجسد على ظهره في قعر الحفرة ثم يلقون الآخر فوقه على بطنه بحيث يحاذي رأس الاول رجلي الثاني وان كان المخنوقان اكثر من اثنين يضعون الثالث فوقهما على ظهره والرابع فوقه على الترتيب المذكور ·

فقلت اروحي الا تظن هؤلاء الاشرار يحملون علينا فقال وبلهام لا تخافي اني اعرف بهم منكم وقد اطلعت على شرائط اعمالهم فانهم يعصبون شباك الحيل لايقاع النفوس في ورطة الهلاك خفية ولا يقدرون على ذلك جهاراً · وفيما نحن كذلك واذ بوقع

الاقدام خفيفة تقرب الينا فاستل مهري وزوجي سدسيهما وتأهبا للاطلاق فرأينا
قردًا ظهر بين اشجار الغابة وظننا انه شاهد ضوء النار من بعيد فاراد التفرج
بها لكنه لما رأى حركة زوجي فرّ هاربًا · هذا الحيوان الجميل ليست له راحة في
الغابة بياض اليوم وسواد الليل يهرب على الدوام خوفًا من الوقوع في مخالب النمور
والاسود لا يتوقف في مكان قط وهو في الحقيقة مظلوما · والخلاصة انه ابتسم ثغر الصبح
وانتشر جناح الضوء في الافق ونحن نردد رأيي وابرام ان نحترز من دخول الشارع
العام ونقطع المسافات من هذا الطريق وكان يقول ان الهنود لم يستعمل امرهم
في بلد مدن الهند كاستعمالها في دهلي وميرتهة ويحتمل ان تكون ناحية الله آباد خالية
من الفتن آمنة مطمئنة · واول عندي ان نلاقيه في طريقنا بعلمنا بمجاري الامور وربما
اتخذناه واسطة لتحصيل طعام او لباس او مركب او عربة تحمل الاثقال · اما زوجي
فكان اسوة غاية بهؤلاء يحترز من ملاقاة الهنود ودخول الطرق العامة وقال حينئذٍ
اريد ان اذهب الى سنديا فان لي فيه رفقاء وشركاء من الفلاحين · وقد كانت لي
سلطة خاصة على زوجي نظرًا لما للنسوان فرنسا على ازواجهن وسبب ذلك اني من اول
زواجنا شاركته في التعب والراحة وآسيته في الشدة والرخاء وما اطلقت يد الاسراف
في ماله ولا خنت ناموسه وما تجاوزت عن طريق العصمة والوفاء ولهذه الامور
كان يعتمد علي ويثق بمحافظة عقلي

الفصل الحادي والعشرون

﴿ الاجتياز في الصحاري ﴾

ولما بنا رأينا في اختيار السبل استطلعنا رأيي وبعد التوكل على الله قلت
يقوم في خاطري ان اسلم الطرق هو الطريق من ساحل نهر جمنا فما خرج هذا
الرأي المشؤم من فمي الا وتلقاه بالحدان · وناهيك عن تصدع الفؤاد اذ أتذكر
رأيي هذا والنتائج المشؤومة التي ترتبت عليه · فما مرت الينا هذه السموم الا منه نعم
اذا جاء القدر عمي البصر وجرت اقلام القضاء بحكم المشيئة الازلية على قنانا

اخصنا قولي حتى ترامت بنا البلدان والاسفار وتتابعت علينا سهام القضايا ووقعنا في المهالك . الوم نفسي مادمت في قيد الحياة وانهف على خطائي الفاحش ودلالي الخاسرة في بقية ايامي السوداء . وخلاصة القول انا دخلنا اليوم التاسع والعشرين من شهر ماي وكان ذلك اليوم بمنزلة فاتحة القصص لو حسبت الذي عام ما نسيت المصائب التي وردت عليَّ فبادرنا بالمسير وما زلنا نسير ونجد حتى انقضت ثلاث ساعات ونحن نخوض الاراضي السبخة ذات الرمال المحرقة تارة ندخل الغابات واخرى نتخلل الآكام فاوجعت الشمس محيانا لعدم مظلة تظللنا في تلك الهاجرة التي يكاد اوارها يذيب دماغ الضب . وصلنا والحالة هذه الى غابة عظيمة اختلف فيها جهات السبل فانهكنا التعب واللغوب وكان زوجي قد اعيا لانه كان يحمل حملاً صغيراً من احمالنا انا وبني ايضاً كنا نحمل ويلاً مناوبة

وهذا الطفل قد غلب عليه العطش في هذه المفازة يشير الى النهر بيديه الصغيرتين وانا اخاف ان تأخذه حمى مهلكة من شرب هذا الماء الغليظ وكنت تارة اشغله واخرى اسقيه جرعة قليلة تسكيناً لسورة عطشه وقد حصل في تحير عظيم لاني لا اقدر ان اسقيه . ولعنت من كان سبباً لايقاعنا في ورطة البلايا وزاد اسفي لما رأيت النارجيل كثيراً في الاشجار « النارجيل او جوز الهند ثمر معروف شجرة يشبه النخل شكلاً طعمه عطاري قابض يخرج من اصوله سائل مسكر وهو طعام كثير من الناس واذا كان طرياً فهو من الذ الفواكه » المعرب » ا وليست لي قدرة على تحصيل شيء منه لياً كله طفلي ويمكن عطشه ولو واصلنا السير طلك فخطر هنا الى بالي انه كان في عمارتنا التي خربت في اثناء الثورة في الغرفة المعدة للاضياف بين ستور التصاوير ستر عليه صورة صورها احد مهرة مصوري فرانسا واظهر فيها حالة عائلة فلاحين انكليزية ابتليت بالفقر والافلاس بعد الغنى والثروة واضطرت للجلاء عن وطنها فلما خرجت كان يتقدمها في المسير اب اطرق براسه الى الارض وقد احاطت به الهموم . تتبعها ام مقيدة في حجرها طفل رضيع وبنت مسكينة باكية يظهر ان في العاشرة او الثانية عشرة تجر عربة ذات عجلتين حملوا عليها الاثاث وما يستعينون به على مؤونة السفر . وكنت حين رؤيتي هذه الصورة في اوقات سعادتي تنقبض نفسي وما كنت اتوقع ابداً ان اقع في هذه الحالة وان الصورة الموهومة التي مثلها المصور

اظهارًا لحسنهِ ومهارتهِ بتحقق مفهومها في وأكون موضوعاً لهذا النقش الخيالي · وما زلنا نطوي الوهاد والربى حتى وقف المدير بنا على ابتداء غابة فملنا الى ظل شجرة من التين وهو ينبت في أكثر الغابات والاهاند يعبدونهُ وهو يثمر نوعاً من التين احمر اللون حلو الطعم تأكله الطيور خلافاً للتين المشهور عندنا فانه امرٌ من السم النقيع · فحططنا رحالنا وتناولنا شيئاً من ثمرٍ اما صهري فكان كسائر الاصهار الذين استعبدتهم محبة زوجاتهم يخدمون اقاربهن وعشيراتهن اظهارًا لحسن الوداد فكنس الرمال والتراب في بقعة صغيرة واوقد نارًا لتحرق الحشرات لاسيما البق المؤذي ثم فرش تلك البقعة باوراق الاشجار وسيجها بالاشواك ودعانا للجلوس ثم غاب زوجي هنيهة وعاد بطيور اصطادها واقتطف قدرًا كثيرًا من الفاكهة من الموز والبطيخ المندي فاقتضت لوازم تعيشنا وجلسنا في تلك البقعة ثلاث ساعات بعد الظهر اكلنا شيئاً مما حضر واسترحنا من وعثاء السفر

ثم تفكرنا في الطريق ونحن ضالون في تيه التعاسة لاندري انا في اول غابة طولها عدة فراسخ فما الذي يجب علينا ان نفعله للنجاة من هذه المهلكة هل نتدئ من جانب النهر ام من هذا الخط الضعيف الفاصل بين الغابة والاكمة وعلى اي حال كان علينا ان نسعى في الخروج قبل دخول الليل · وقد طالما نصحت السنة حكماء الكلمنج وشعرائها بالاحتراز من المبيت في هذه الامكنة وذكروا في غضون كلامهم واشعارهم المضار المتطرقة من التوقف فيها · وبعد التأمل العميق صممنا على قطع الطريق من هذا الخط

ان السباع والوحوش الضارية كثيرة في غابات الهند بل هي اكثر من ان تحصى وفيها انواع الحيات ومنها نوع ادق من الخيط يسمونهُ بناجا وهي اخبثها اذا نهشت قتلت من ساعتها · وغير ذلك من الحشرات القتالة والهوام المؤذية والخفافيش الصغيرة والافيال العظيمة والقرود والكركدن والذباب السام وفيها الحفر العميقة الممتلئة بالوحل والمياه العفنة التي تغير من نتنها الهواء المجاور لها بمرور الازمنة والدهور والموت باطرافها الاجام بحيث اذا وضع الانسان رجلهُ في واحدة منها غاص في الطين اللازب وغرق وليس له سبيل للنجاة ولا يمكن لاحد اخراجه · كل هؤلاء كانوا في انتظار ضيوفهم الواردين ليقوموا بواجب الضيافة ·

فقمنا ولنغتنم النهار لنبلغ قبل انقضاء الضياء قرية نحل في ساحة خالية من الاشجار نتخذها منزلاً

وما كانت آمالنا الا مجرد خيال لانا ما قطعنا في الطريق اكثر من ساعة الا وخرجنا من الغابة ووصلنا الى تل رفيع صعدنا ذروته فاشرفنا على صحراء شاسعة واسعة كثيرة العشب والكلاء تمتد بامتداد البصر ورأينا من مسافة بعيدة شوارع الهند كالثنية بيضاء خطت على متن الخضر · وظهر لنا في اقصى الافق وخاتمة الصحراء آثار مدينة عظيمة من قبيل منارات المساجد وقلاع القصور

فقال ويلهام هذه مدينة اناواه فصاح زوجي فلنتوكل على فضل الله ولنقصد هذا السبيل واذا بلغنا مكاناً نختاره منزلاً · وفي الحقيقة ليس الهنود كلهم مريعون فربما فقد نجد قوماً ذوي مروءة او نلتقي بعائلة ذات ثروة فنستريح من نكد الاسفار والاخطار · ونظرت في هذا الفضاء الوسيع فلم يظهر فيه شيء يدل على الثورة او علامة تنبئنا بلوغ الفتن الى هذه النواحي وخاطبني زوجي قائلاً · ألا ترين الجمال وعليها احمال التجارة تمر متقاطرة على الطريق · ألا تشاهدين تلك الافيال العظيمة وعليها الهوادج يقطعن الطريق بطمأنينة تامة · ألا تنظرين الى هذه العربات وهؤلاء الفرسان والمشاة يسلكون السبل من جهات مختلفة · ألا ترين الدراويش وابناء السبيل يتجولون بتذلل ودعة والنساء اللائي يحملن الماء على ظهورهن · أليس كل هذه من علائم امنية المملكة وعدم سريان الثورة الى هذه الناحية واني لمتيقن انا قد طوينا ارض الرعب وصرنا الى الحي الامن ان شاء الله ·

مضت على زوجي ايام طويلة ما رأيته يتفاءل بامثال هذه الكلمات فعلمت انه يريد تقوية قلوبنا ببياناته المبهجة وخيل لي انا قد انتهت ايام التعب وسيطلع نجم سعدنا ولكن كلامه قلما اثر بنا ولا طابت نفوسنا ومع ما شاهدنا نضارة الصحراء ونضارتها كانت تزداد همومنا كانما الصحراء التي قابلناها الى الآن علامة المصائب التي سنبتلي بها وان في خلال ايامنا الآتية مصاعب وخطوباً ذات الوان · ثم رأينا على مائتي ذراع من موقفنا دائرة يحيط بها سياج كثيف من الخضرة فيها جماعة كبيرة يتحركون · هل هي قطيع غنم عائد من المرعى يريد الراعي ادخاله في القرية · ام هي بقر اشتغلت بالرعي · وفي اي حال لم يكن لنا بد من ملاقاتها

فرجونا فضل الله ورضينا بمشيئته وتحركنا اليهم وكان يزداد تعجبنا لحظة فلحظة لاننا كنا نسمع من تلك الجماعة صوتاً عجيباً لايشبه صوت الانسان ابداً - وشممنا بعد قليل رائحة عفونة كريهة

واحرباه وواوعناه كلما شاهدته في معابر دهلي رأيته في هذه الصحراء ، ولما وصلنا المكان رأينا عشرين نفراً من ابناء وطننا أُشربوا كاسات الحتوف ووقعوا على صعيد الارض صرعى وعليهم حلل الرجوان - وظهر لنا ان الاشرار العاصين تلاقوا هؤلاء فقاتلوا ثم دفعوا جثث قتلاهم وتركوا اجساد الانكليز امام الشمس تحوم حولها الوحوش والنسور وتشرب من جوانحها غربان الفلاة - وما كانت تلك الجماعة التي رأيناها من بعيد الا الحيوانات التي اجتمعت على اجساد المقتولين . فاطلق زوجي بندقية فطاير عنها اكثر من الفي غراب وفرّت عدة كثيرة من الكلاب وبنات آوى - فلما دخلنا تلك المذبحة وجدنا نسوراً عظيمة الجثث ملأت احشاءها من لحوم الاموات حتى لاتقدر على الحركة فابعدناها جبراً . وكان ويل في حجري ودموعي تنسكب من اماقي . سبحان الله الى اين ذهبت تلك البشائر التي كان زوجي يبشرنا بها فقد انقلبت بهذه السرعة - وعلمنا ان الثورة تفاقم امرها في هذه الاصقاع ونحن التعساء ما خلصنا من ايدي متعصبي دهلي حتى وقعنا في مخالب سباع آله اباد ومملكة اوده

الفصل الثاني والعشرون

﴿ القرية المحصورة ﴾

ولما بعدنا من هذا الموضع شاهدنا آثار قرية محصورة وامثال هذه القرى كثيرة في مملكة بنكالة . وذلك ان ساكنيها يحيطونها بسور محكم حوله خندق بعيد المهوى والطريق الذي نسلكه الآن ينتهي اليها والصحراء كما قلنا كانت ذات حقول ومزارع من الارز والحنطة . والعجب ان القرية تظهر خالية من الناس مع وقوعها في تلك الارض الخصبة المعمورة ورأينا في داخل حصار القرية نخيلاً . فقال زوجي ارى

انه قد التف بخرقة من بقية اللواء · فدقت عينه اظن بما رآه يطوف حول النخلة راية انكلترة وان عساكرها نصبوها علامة بحدود املاكها · وطمع بها فالتمس فوق النخلة وطرح هذا اللواء بنفسه الى الارض كأنه حيوان ذو روح لتحيرنا بين ان يكون انسانا او قردا لانه كان شبيها بكليهما بل هو اشبه القرد في سرعة حركته ووقوعه على الارض · فقال زوجي لقد تطيرت بهذه العلامة والظاهر ان سكان هذه القرية اقاموا رصدا فوق النخلة ليلاحظ الاطراف ويصيح على العابر والمتردد بحضرتهم فقال صبري اني ارى جماعة خرجوا من القرية وجاؤوا الينا · فتأملت وقلت اني ادرك بذلك حدسا ان هؤلاء الاشخاص متلبسون بالملابس العسكرية المخصوصة بفرسان عساكر الانكليز كما جرت العادة بذلك · فقال زوجي الامر كما تقولين لكن عساكر العدو ايضا قد يلبسونها

وكنت قد لحظت منذ بضعة ايام ان زوجي صار الى غير عاداته وطبائعه فاصبح لا يتكلم الا بعض ما يقول · ورأيت في سلوكه دليلا كليا مع سلوكي وانا في عجب كيف يتكلم بهاتيك اللهجة الحديثة فوا أسفي ان كثرة الاحزان اضلته فقد مزاياه الاولى السامية وقد اتجهت ثورة من غيظي عليه وعيناه لا يمتلك عرق الخجل متصببا على جبينه ووجنتيه يرافقنا منفردا ويطوي الطريق متنكرا لا يكترث بسؤالنا · وان اجابنا كانت اجوبته خفيفة · أليس هذا زوجي الشفيق ورفيقي العتيق الذي عشت معه سنين · ورأيت في وجهه بنات وبنين · لو عوقت المقادير موته لتغيرت طبيعتي وتحولت حالي وكما ان الامراض تدعو الى ضعف الابدان فالتعاسة توجب انكسار القلوب وانقلاب النوايا والضمائر وبعد برهة صاح وبابام وقال هؤلاء القادمون فرسان عساكر الانكليز فاخذ عمامته عن رأسه ونشرها ثم شدها الى رأس بندقيته مثل الراية ورفعها قائلا « فلتعش امة انكلترة ودولتها » فاسرع من بينهم ثمانية اشخاص على افراسهم وقصدونا ثم وقفوا على عشرين قدما وصوبوا الينا بنادقهم وقرب منا رجل منهم وصاح بالانكليزية « من انتم واين تريدون » فقال صبري « يا للعجب لا يعرف كأنني مارق من امة وتقدم التقدم فيها » لبث ذلك الرجل وقتئذ ان نزل من مركوبه · وتعانقا وتهلل وجههما انبساطا ولا اشرح تفصيل هذه الملاقاة وما قد يقع في امثال تلك المواقف فانها غنية عن

البيان فاذهب لبيان المطلب

ان « كابتن مارتن » من ارباب المناصب الذين شهدوا الحروب والمغازي له منزلة عليا في مملكة انكلترة مات ابو وليام ايام طفوليتي فرباه ذلك الرجل واقام بكفالتي حفظاً لحق الصحبة التي كانت له مع ابيه. فلما ترعرع ونما انخرط في سلك العساكر وابرز شجاعته وواظب على اداء وظائفه حتى نال درجة النيابة . وكنا نعرف اسم الكابتن قبل هذا اليوم وكان من المدعوين في وليمة تزويج آلن التي انعقدت في دارنا قبل الثورة فاملنا القضاء ان نحزن هذا العرس على وفق امالنا . ولما فرغنا من المعانقة عرّفنا وليام به واحداً بعد واحد ثم انطلقنا الى القرية وعلمنا اثناء ذلك ان مارتن قد فرّ من مدينة فرخ اباد مع عدة من الفرسان وثلاثة من الملكة ليذهب الى آله اباد او بنارس . فالتقى في الطريق بجماعة من الارامل والايتام واقتضت حميته ان يوصل هؤلاء التعساء الى مأمن لعلهم يخلصون من الموت . وما زال بهم الى تلك القرية فاجأهم هناك بغتة فوج من الطغاة وحاصروهم في تلك القرية وجرت بينهم وبينه محاربات شديدة . وبعد ذلك نضب الاشرار خيامهم وحطوا رحالهم وهم ينتظرون غضباً وفي نية مارتن ان يحفظ هذا الجمع ويقاوم تجاه عزائم الاشقياء عرساته المعدودين . وفي اليوم الثاني لحقت اهالي القرية بالجنود وذهبوا بما في ايديهم من الارزاق والمواشي والاغنام فبقي هذا الرجل الغيور بين عذابين شديدين الحصار وقلة المؤونة

ومن التجارب التي تنفع للبشر في موارد الخير والشر علم انه اذا اشتدت غياهب المصاعب واحلولكت ليالي الخطوب تطلع له شموس السعادة وتنقشع عنها المتراكمة بغتة فان لكل بداية غاية . وقد قيل في ذلك

ان ترى الدنيا اعارت   ونجوم السعد غارت
فصروف الدهر شتى   كلما جارت اجارت

فتصورت انا بالاقانا هؤلاء المنكودي الحظ الذين قضت عليهم مصائب الدهر بالبقاء تحت سلطة التعاسة ستنقضي ايام النحس و يأتي الوقت الذي تخرج فيه يد غيبية تبشرنا باقبال النعمة و بلوغ الاماني وانقضاء ليالي محننا المظلمة

ومجمل الكلام ان زوجي زالت غصته وانبسط وجهه ولانت عريكته وتركت

المحافظة وطفق يعاملنا باللطف واللين والرفق والحنوّ وصهري داخلة ارتياح خاطر من ملاقاته بالكابتن وصار يقول ان الهياج سيرتفع بعد ايام معدودات وتصبح رياح الامن سارية في تلك الجهات ونظر في امر العرس فنزلنا هذه القرية وشاهدنا صاحبنا الذي رأيناه اولاً فوق النخلة

وكان الكابتن خائفاً من حملة الاشرار فاخذني من خوفه سوء ظن وسلمت نفسي لبعض التوهمات . اقبل الليل فعينوا منزلنا في بيت سقفه من القصب بقرب منزل الكابتن وامروا تسعة اشخاص من الفرسان والمشاة للحراسة الى منتصف الليل ليقوم جمعٌ آخر بالمحافظة بعد انقضاء نوبتهم . وقال زوجي وصهري نحن ايضاً نقوم ونحرس من نصف الليل وقرروا بعد المشورة ان الاشرار اذا هجموا فعلى النساء ان ينتقلن جميعاً الى القرب من حجرة الكابتن وجاء نصف الليل وحانت نوبة زوجي وصهري فهبّا من النوم وذهبا فاردت ان اعرف نقطة اشتغالهما بالحراسة فانطلقت على اثرهما وبعد معرفتها عدت الى مكاني ونمت

لا أنكر ان نومي كان ثقيلاً للغاية لاني لما استيقظت رأيت الضوضاء مرتفعة وكان نصف القرية في حالة الاحتراق . فاخذت بيد بنتي وامي وذهبت الى موعدنا المعين فظهر لي ان الحريق من المشعل النارية التي القاها الاشرار في بيوت القرية واجتمع امام منزل مارتين جمع من النسوان ينيف عددهن على الخمسين . اما عساكر الانكليز فانهم دافعوا في الاطراف ثم علموا ان المحاربة مع التفرقة لا تنفع . فاجتمعوا في محل اقامتنا وقد بذلت جهدي في البحث عن زوجي وصهري فلم اجدهما في الجمع . فشوّشت غيبتهم خاطري وقلت هل اصابتهما المشاعل النارية في اول وهلة فانا . فما مرت هنيهة على ذلك حتى ظهرا فاطمأنّ قلبي . ثم دخل الهنود حائط القرية بخيلهم ورجالهم وتقاربت النيران . وبعد اطلاق الرصاص جردوا المرهفات وقامت الحرب على ساق وقدم وطال الكفاح فاخذوا يضربون السيوف ويشربون الحتوف . واول من خرّ على الارض مقتولاً كابتن مارتن ذلك الرجل المقدام وقتل الرجال واحداً بعد واحدٍ حتى اتت نوبة النساء فصاح صهري وقال لزوجي قد احتدمت الحرب فعلينا ان نفر من حومة القتال واحسست في نفسي قوة الفرار في رجلي من غير معاونة الغير فضممت طفلي الى صدري وانطلقنا مسرعين

الفصل الثالث والعشرون

﴿ خطب فادح ﴾

آه واحزني على نوازل مصائب تصدع قلوب الراسيات . ووالوعتي على حيل هذا الدهر المتعبث الذي يصور كل لحظة صورة جديدة في صحائف تعاسنا ويسحبنا في كل آن بيد كارثة نحسبها آخر المصائب ثم لا تلبث آمالنا ان تزول فنسقط في ورطة تسد مخارجها وتضيق معارجها وتطفئ لمعة النور ويحيط بنا الشرور . اين ذهبت تفاؤلات زوجي ان امانيه لم تعش يوماً واحداً وما ذاقت مقلتنا ليلة كراها الا واعقبت النوائب هجودها . ولا جرم فقد دائماً رائد التقدير الى طرف من اطراف الغربة المحترقة . فحسبنا الوصول الى ذلك المقام فوزاً عظيماً ثم فررنا من هذه الجهة الى الصحراء وكان هؤلاء الدراويش يعدون من خلفنا فقربوا منا بحيث كنا نسمع وقع اقدامهم ثم ظهرت امامنا مزرعة من قصب السكر فاختبأنا فيها . وبعد قليل سمعنا صوت الابواق فقال زوجي طيبي نفساً وردي روعك . هذا هو الامر لهم بالرجوع فيرجعون وآمن الخطر ثم رجعوا عنا وما كانت رجعتهم هذه الا اطاعة لحكم قوادهم وامراء معسكرهم لاتمام احراق عدة من الانكليز بين الذين اخذوهم في المعركة وليشتركوا معهم في هتك نواميس النساء اللواتي اسروهن

رجعوا ولكنهم اطلقوا في اثناء الرجعة بنادقهم علينا . . . فشعت ايديهم انهم ما فرغوا من اطلاقها حتى سقط واحد من امامي وآخر من خلفي . وقع صهري اولاً ثم زوجي على الارض وقد انتفق السحاب عن القمر فاغبرت عيني وضاقت علي الارض بما رحبت فلهثت وطرحت طفلي من حجري والقيت نفسي على جثة زوجي فرأيته قد انجرح وهو يقول « لا تصرخي ولا تخشي وجهك الى نجم حياتي وغربت شمس عمري ولا خوف لي من ذاك الا اني اخاف عليك وعلى اولادي من الهلاك » فشرقت حينئذ بالبكاء لا ادري ما افعل ولا افهم ماذا اعمل

فسألته اي عضو من اعضائك اصيب بالرصاص . فوضع يده على صدره وقال « اصابتني الرصاصة من ظهري وهي الآن في داخل صدري شوكاً دقيقاً » وقام ومشى بضع

خطوات فغلب عليها الوجع وسقطت على الارض وأدى اذ ذاك صهري و [illegible] وما الحاجة
احد الاطباء الصغير . فقمت الى صهري والى [illegible] ولم يكن الا ان نقوم
ونجيء اليه العائد بالأسى من هذه الليلة اني لا انسى كلما شاهدته عيناي ايها القارىء
الكريم فان هذا نصف يسير من اخبار الشقي فيا ليتني مت قبل هذا البلاء العظيم
[illegible] في هذا الموقع [illegible] تلك الحوادث . ولما فرغت من صهري رأيته
قد سقط راسا وجلست على ركبة في حجرها تنظر الى جبينه في ضوء القمر وفي [illegible]
[illegible] الحزن خفيا [illegible] . فعلمت ان صهري صادفته الرصاصة في [illegible] فتقطعت
اعصابي [illegible] وتقطعت [illegible] من [illegible] وما تمكنت من السكينة [illegible]
زوجها في نفسه الاخير . فقلت [illegible] الخروج [illegible] قبل خروج [illegible]
اجابني . [illegible] قد [illegible] خولي [illegible] فرجعت الى زوجي
فقال اين [illegible] اين صهري [illegible] في هذه الساعة [illegible] عمري فان [illegible]
[illegible] وحياتي لا تدوم اكثر من ساعة
الا على [illegible] الموت

فقلت [illegible] ما هذا الذي تقوله فاجابني بصوت
متقطع [illegible] زوجي [illegible] فقد حان [illegible] . وهذا آخر حياتي [illegible] وتلاشت
اعضائي [illegible] الآن [illegible] . ذهبت واستودعكم
الله الآن والى الابد . . . استودعكم [illegible] . .

وما [illegible] حتى قضى نحبه وفارق الحياة [illegible] . والمصيبة بالجسارة [illegible] لقد
[illegible] فاضطربت [illegible] الذل [illegible] حتى غرقت في بحرها الزاخر
وكثرت [illegible] مضارب الحدثان فاصابت [illegible] فؤادي [illegible] كوكب
سعدي فبت وحدي .

فكأنما قرن الزمان بولدي [illegible] فكان الحس من ميلادي

ماذا افعل يا ترى [illegible] وعولي على [illegible] ويدافع [illegible]
[illegible] . هذا الذي سقط ميتا كان [illegible] وعيني . كان زوجي وعوني على دهري
ومشيري في أمري ومشاركي في [illegible] . فمن ابغي الانتصار بعده
على نوائب الدهر الغدار

وخلاصة القول ان رأس زوجي كان في حجري وبيد طفلي اليتيم بيدي وما زلت ارعى نجوم الليل واناجي ساعات [illegible] حتى اذا طلع النهار التفت الى ابنتي فرأيتها لم تتحرك من مكانها ابدا وهي لا تزال تنظر الى وجه زوجها والهة حيرانة من غير بكاء او تكلم كأنها هيكل جامد ركز في موضعه وكأن زوجها قد نام وهي تخاف ان توقظه الاسد استيفاء النوم فمسحت عبراتي وانذهلت بها في النظر الى جثة زوجي ثم فكرت في حالتي الحاضرة فرأيتها من الذي بيدي وما اللائق من الاحتمال. قتل زوجك وبعد ساعة تقعين انت ايضا وولداك في ايدي الاشرار. وكان ولدي كل دقيقة يذهب الى اخته ثم يرجع ويجول في الغرفة كأنه ادرك وقوع المصيبة وعلم بموت ابيه وزوج اخته. وبعد ساعة مال الي من ألم في الا بعد من جوع فطلب اذ لا يعلم بالوفاة وكيف اقدر ان اعلمه بان هذا اليوم يوم الحزن لا يستقيم لا تعرف منه فالشرف الثكل. وقلت له طفلي طاهر النفس الطالب الغذاء لا بأس. وزوج اختك وادع لنا عسى ان ينظر الله الى صغر سنك ويستجيب لك دعوتك فيرينا فرجا. فجثا على ركبتيه وشرع في الدعاء. ثم ارسلته الى اخته ليرى هل هي على ما كانت عليه ثم غيرت حالتها فرجع وهو يقول رأيتها تبكي. فشكرت الله لان الهموم اذا لم يكن عند توارد المصائب عالف عليه من الحياة وما تنطفئ اكدار القلوب الا امطار الدموع والبكاء هو الواسطة الوحيدة لتزكية الروح وتخفيف وطأة الحزن

ثم كثرت الجلبة وارتفع القيل والقال في طرف القرية ورأينا دخانا عاليا طبق الجو فعلمنا ان الاشرار احرقوا القرية تماما. وحينئذ جلس ولدي عندي واتكأ عليّ ووضع رأسه على ساعدي وشكى من الجوع وكان ذلك ثقة تعاستي ان اسمع صوت طفلي اليتيم يشكو الجوع فاعتراني خفقان قلب ودوار فاغمضت عيني وظننت الا نجاة لنفسي الا من في قطعة خبز او جرعة ماء في هذا المكان فان الغابة على مسافة بعيدة والنهر كذلك فلا التجئ اليه الا بعد جهد جهيد وكيف اترك جثة زوجي منفردا واذهب. فدار في خلدي ان اقصد الاشرار واتقدم اليهم بعجز ومسكنة واسأل طعاما لطفلي فان قتلوني اراحوني من هذه الحياة التعيسة.

فما كان امري هذا الا كخط على صفح الماء وما كنت الا كالراجي سراب بقفرة بيداء هل ينقذ الموت طفلي من مخالب الجوع والعطش. كلا. العياذ بالله من هذا

الخيال الباطل او كنت اطلب ذلك ابلاً وانا لا استطيع تحصيل الغذاء لطفلي اما الآن وقد ضربت الفحى اطنابها كيف يمكن لي هذا . وفيما انا في ذلك واذا بطفلي قد رنع عويلاً واجهش البكاء فنسيت الميت وقمت لتخليص الحي وكنت حائرة في امري مرتبكة باحوالي فسترت جثة زوجي وقلت لوبل ان اباك قد نام فلا ترفع صوتك وانتظرني ريثما اجيء . ولما قربت من بني نظرت اليَّ مستفهمة ولسان حالها الى اين تذهبين وما تريدين ففهمتها قصدي فما اجابتني ولكنها مدت يدها الى المزرعة وقطعت قصبة من قصبات السكر والتها اليَّ فكسرتها واعطيتها الطفلي يمصها فلما مصها سكنت سورة عطشه فندمت على غفلتي ورجعت ثم تصورت ان امتصاص القصب يسكن عطش وبل الكنه يشكو الجوع بعد حين فماذا يدفع جوعة بعد ذلك لا امان على وجه الارض والله او امرأة ابقت بتعاسي عظمت لوعتي وصدعتني النوائب صدعاً فكيف الخلاص من هذه الحياة المشحونة بالاكدار . فليت شعرى الام تجاوز ملمات الزمان حدودها . وتستغرغ في حق مجهودها .

يارب ان كان عيشي هكذا غصصاً   فامنن عليَّ بموت فهو اروح لي

لبثت في تيه الاستكانة انظر يمنة . في المشاهد الا محنة . اعطف يسرة . فما ارى الا الحسرة . اذا ذهبت الى الاشرار فلا ارجو منهم مروءة . هل يمكن اليوم بعد ذلك ويعتمد عليهم . وان بقيت هنا لا أمن من تجسسهم والام تتعد ونبكي هل ينفع البكاء لا أنسى مدى عمري ذلك المشهد المحزن الذي يمزق الاحشاء ويفتت الاكباد ولكن ما العلاج وقد وقعت الرزية

الفصل الرابع والعشرون

دفن العزيزين

ان الاجساد تتعفن في تلك البلاد الحارة بسرعة لا توصف بحيث لا تترك فرصة للتأمل فليس لنا الا ان نضع هذين الجسدين العزيزين امام الشمس ليكونا طعمة للغربان والهود كاجساد سائر الانكليز . . . لا والله لا ارضى بهذا ولو قطعت ارباً

ما احفر لها قبرًا بانأملي ولو تقطعت فاشتغلت بحفر القبر ساعة بجد وافر حتى سال الدم من رؤوس اصابعي وانا لم احفر الا شبرًا واحدًا . وسمعت حفيف اجنحة الطيور ورأيتها ترفرف فوق رأسي تريد الوقوع على جسد زوجي فاستأنفت الحفر ثانية حتى امتلأت خلايا اظفاري بالرمل والتراب واصاب انأملي جرح عظيم فعجزت عن العمل فوقعت بجانب الحفرة ناظرة الى السماء والعياذ بالله واوشكت ان انطق بما لا يليق . اما الطيور فانها قربت مني بحيث كادت اجنحتها تمس وجهي فنهضت صارخة وقلت « ايها الطيور ما بالكم لا تجيئون وتقتلونني فأستريح » وبينما انا في ذلك واذا بطفلي قبض بيده وعانقني وهو يشكو الجوع

نعم كان يجب عليَّ اولاً ان ادفن زوجي لاني كنت ضجيعة وله عليَّ حق البعولية لكنني لا اقدر ان انسى حق ابني وهو مهجة فؤادي ولا ينبغي لي ان اتركه جائعًا حتى تزهق روحه فهممت بالذهاب الى الغابة وانطلقت اولاً الى بنتي فوجدتها مشبكة اصابع يديها مطرقة برأسها تنظر الى وجه زوجها فاعلمتها بقصدي فتنهدت الصعداء وقالت : هل يجوز لنا التفكر في امر العيش وقد وقع هذان العزيزان في هوة الموت وهل يليق بنا ان نتركهما طعمة لوحوش الفلاة ونسورها . فاريتها يديَّ فلما رأتهما تصورت اني اخبرها باني حفرت قبر زوجي وبقي قبر زوجها . فقالت لم يبق مجال للتفكر فكفينا هذه الحفرة ندفنهما في موضع واحد فاجبتها ان اصابعي انجرحت لعدم وجود الآلات المعينة على الحفر فما اجابتني ولكنها وضعت رأس زوجها على الارض واستلت من وسطه خنجرًا كان ملوثًا بالدم من محاربة البارحة وقالت لي هاكه ثم انطلقنا حتى اتينا الحفرة وكانت الارض رخوة فسهل حفرها بالخنجر فاشتغلت بالحفر بسرعة عظيمة وكنت احفر باليمنى واخرج التراب باليسرى كامهر الحفارين . فتصوّر ولدي ان عملي هذا من قبيل الالعوبة الاطفال فاخذ في معاونتي والاشتغال بجانبي فقلت له اذا ساويت الحفرة فذلك اعطيك خبزًا وفي اثناء الحفر سمعنا من خلفنا صوتًا فخطر لنا خاطر بعيد عن العقل وذلك انا تصورنا ان الله اعاد الحياة لزوجي او صهري فلما نظرنا علمنا ان نسرًا قرب من صهري ورفع رأسه للاكل ولما اطلع على وجودنا القى الرأس خوفًا وهذا هو الصوت الذي سمعناه . لا تلوموني ايها المطالعون على اوهامي هذه فان المبتلين بموت الاعزة ربما تدور في خلدهم امثال هذه الاوهام التي تنبه

الطيران على اجنحة الخيال في جو المحال

فقالت بنتي علينا ان نعجل في دفن هذين الجسدين فان الطيور تهجم لاكلها · فاشتغلنا بحفر القبر فحفرناه حالاً وعظم علينا ما لم نر بدًّا منه وهو ان نفارق ازواجنا فراقًا ابديًّا لا تلاقي بعده وان نواريهما في حجاب التراب ونتركهما في بطن الثرى ولكن تلك سنّة اودعها الله تعالى في الطبائع الانسانية ان ينسى ما بعد عنه من النوائب ويفكر في ما يقرب اليه من الشؤون والطوارق · ولا ادري الآن اي هذين الجسدين احق بالتقديم عند الدفن هل يجب ان يعاون بعضنا بعضًا في حملها الى الحفرة ام نحملها واحدًا بعد واحد · فاجبرني حب الانية ان اترك بنتي المسكينة مع جسد زوجها لتستوفي حقها منه عند دفنه وقدمت دفن زوجي فقربت منه واحتضنت جثته وطلبت اجنبة حتى ادنيته من شفير الحفرة وكان ويل قد قبض على ذيل ابيه

ولما رأيت اني مفارقة زوجي لا محالة اردت ان اخذ منه ما يكون تذكرة لي بعده فادخلت يدي في جيبه فما وجدت شيئًا ثم ادخلتها تحت مدرعته وفتشت من حقويه هميانًا مملوءًا من الليرات الانكليزية ومشدودة على وسطي · هذا هو الميراث الذي تركه زوجي لطفليه اليتيمين وهذه بقية ثروتنا الوافرة التي خلفها زوجي · وعليّ ان اكفل امور ابني وبنتي واكون رقيبة لا عليها حافظة حالها وباحثًا لو كانت تدوم هذه البدرة عندي · وبالجملة اني نظرت الى زوجي فوجدته قد تبدل لونه وصار ذابلًا واصبح وجهه كانه الشمع صفرة ونحولًا وفقدت بشرته لونها الاصلي وعرفت شعور رأسه السود عند الاحتضار في آخر دقيقة من حياته ثم بردت بعد ذلك ولصقت بجبهته فارتسمت من لصوقها على وجهه خطوط مصفرة · فاسمرت نظرتي برهة وتناثرت دموعي وتساقطت الى ارض التعاسة والحرمان وحينئذ قمت مذعورة وانحنيت عليه وقبلت جبهته بقبلات حارة شهية واردت ان اخذ من هذا الزهر المصفر ذخيرة لنفسي قبل ان يواريه التراب فوضعت شفتاي عند تقبيله على خصلة من شعوره الملصقة بوجهه فقصصتها باسناني واخفيتها في جيبي وحسبتها حرزًا حريزًا ونذرت ان احفظ هذه الوديعة النفيسة ما دمت في قيد الحياة

واخرجت من اصبعه الخاتم الذهبي الثمين الذي كان قد اعطانيه عند الزواج فادخلته في اصبعه واردت بهذا اني لا اختار زوجًا بعده ثم ناديت بنتي وبعاونتها

القيت جسده في قعر الحفرة ونقلنا جسد ويلام الى شفيرها ووضعناه فوق جسد زوجي وبعد تلاوة الصلاة عن نفسيهما واريناهما في التراب وردمنا عليهما الاحجار واخذت بنتي عند ذلك تندب زوجها وما اخذنا منهما شيئاً سواه ونحن نتوهم انهما ينظران الينا ويعلمان باعمالنا وما كان خيالنا هذا الا جنون · واللواتي تموت ازواجهن يعلمن ان ما اقوله لا يرده عليه · اما ولدي اني فلما شاهد تلك الاعمال المحزنة سألني لم واريتم ابي وزوج اختي في التراب فقلنا له بزيد حسرة وتوجع « مات ابوك ولوى بين الاحجار وتركناه في جوف القبر » · فرفع حينئذ عويله وبكى بحالة صدعت قلبينا وزادت حزننا وفيما نحن في البكاء والانين سمعنا صوت طلقة مدفع تبعها قيل وقال في معسكر الجنود ثم انقطعت الجلبة وبعد مضي دقيقة سمعت صوت طبل كأن فرقة عسكرية تحرك على خلاف الجهة التي كنا فيها فسررنا سروراً عظيماً لزعمنا اننا خلصنا من شرور مجاورتهم · فلم يكن تلمع الفجر واذا بدوي طبل قرب منا شيئاً فشيئاً فعلمنا ان الاشرار انقسموا قسمين رجعت جماعة منهم الى القرية وتحركت الاخرى الى السمت الذي نحن فيه · بيد ان سبيلهم على مقربة هذه المزرعة التي توارينا فيها

ولا يمكن لنا الاختفاء الا بخارق العادة · فرفعت بنتي من مقامها واخذت اخاها واختبأت في تلك الحفرة ثم نمت انا فوقها · كان هناك ميتان تحت التراب ونحن الثلاثة فوقهما نسمع تفرج شبح الموت · ومرَّ الجنود وفيهم الفرسان والمشاة بنظام كأنهم في ساحة الاستعراض ومعهم عربة لحمل الاثقال وجمال ذات هوادج · وطال ذلك المرور الى ربع ساعة ولم يشعر اولئك الذئاب المفترسة بنا وبعد انقطاع اصواتهم خرجنا من الحفرة

تصوروا الآن حالة ضعيفتين تعيستين مع طفل صغير وقعتا في بيداء المذلة في ارض العدو لا مؤانس لها ولا حارس لا تعرفان منزلاً ولا معاذاً · اذا جنهما الليل ارقتا واذا اوضحهما النهار قلقتا · وما الذي تقدر عليه مخلوقة تعيسة عاداها الزمان وكل شيء يهددها تنتظر الموت في كل آن · لا الموت الفجائي والاجل الذي يدرك الانسان بغتة فيريحه ولا الموت الذي يقتل المريض بعد مدة في احضان عشيرته واقربائه · ولما اردنا المفارقة رميت بنفسي الى القبر واحتضنته والصقت احشائي ببرد ذلك التراب فبكيت وتوجعت ثم افترقنا وياله من فراق أليم

ومشينا واعتمدنا على الله فعبرنا من حوالي هذه القرية التي كنا فيها في الليلة الماضية ونحن في لباس فقراء الهند فلم يطلع علينا احد . وما زلنا على ذلك حتى قربنا من الشارع الكبير وفي جانبيه غابات عظيمة فاختفينا فيها ووقف بنا السير على روضة فالقينا عصا التسيار وتغذينا باثمارها واشجارها حتى هدأت نفوسنا فغلب عليَّ التعب والبكي فوقعت واستولى عليَّ النوم فنمت ست ساعات فلما استيقظت رأيت بنتي قد صنعت مظلة فوق رأسي زينتها وزين بباقة من الزهور ثم عمدنا الى ايقاد النار خوفاً من شر السباع فجمعنا حطباً كثيراً ولكننا لا ندري من اين نجد جذوة نار فرجعنا الى معسكر الهنود وقصدنا موقدة وجدنا فيها جذوة اتينا بها واشعلنا الحطب ونمنا بجانب تلك الموقدة مضى الليل كله من غير ان تكتحل عيني بالكرى ولم ازل في مغالبة الاوهام ومقاساة عنها الشديد افكر في موت زوجي الذي كان حافظاً لنا راعياً لاحوالنا حتى جددني عليه المنون وخانني فيه الدهر الخؤون . ماذا تفعل امرأة مع طفل ابن ثلث سنوات وبنت مسكينة غرقت في بحور المصائب والفتن وحارت في بوادي المتاعب والمحن وهل نبلغ مدينة كانبور او اله اباد واذا كانت الغداة من اي سبيل يجوز لنا الذهاب . ان طريق اله اباد مع بعده احسن الطرق لاحتمال ملاقاتنا بعساكر الانكليز لكننا لا نعلم ان هذه المدينة في قبضة الطغاة ام هي باقية على ما كانت عليه وبعد التفكر عولت على الدخول الى مملكة اوده بعد طلوع النهار

يا تعاستي ويا تعاسة جدي لو كنت حولت امري الى المقادير وما عولت على التدبير الضعيف في سلوك طريق اله اباد ما قتل ابني وبنتي وكان لي الآن حيث انا في باريس انس لغصتي وجليس في غرفتي . وللانسان ان يحول اموره الى مشيئة الله ويطلب منه طريق النجاة والسداد . فاياه ان عوّل على رأيه . وركن الى سعوده . يرى ما رأيته . ويقاسي ما قاسيته

الفصل الخامس والعشرون

﴿ رباط في الطريق ﴾

ولما طلع النهار تحولنا الى جهة المشرق نقصد مملكة اوده وما زلنا نقطع

الطريق ونغوص في الرمال ونستشرف الهضاب والتلال والهاجرة قد استعرت واشتد وهجها فقلت لابنتي انا منذ الغد نسلك الطريق ليلاً واذا اقبل النهار نتزل في غابة او نسكن في جنب ماء . وبعد مسير عدة فراسخ شاهدنا من مسافة غير بعيدة آثار رباط من الرباطات التي بناها اولو الثروة في الطرق على نفقتهم لتكون منزلاً لابناء السبيل ومحطاً للقوافل . ولما اقتربنا منها رأينا انه لا يمكن لنا التواري في الغابات ولا نقدر على الرجوع لانا صرنا في مرمى ابصار اهل ذلك الرباط فرأينا ان نمشي اليهم بجرأة رفعاً لسوء ظنهم فينا ولما افضينا اليها وجدنا حوالي هذه النقطة جمعية قد انقسمت على هيئات مختلفة بين قائم وقاعد ومنتصب وراقد . ورأينا في القاعة اناساً جالسين يدخنون النرجيلة والغليون يستمعون وقائع الثورة واخبارها وفي مدخل الجدار عربات كثيرة وفي الجهة الاخرى مراكب وافيال وجمال تحاملت الارض واطالت الاعناق لاستنشاق الهواء . ورأينا في درب الحصار كثيراً من الهوادج المخصوصة لركوب النساء بين منتصب وغير منتصب فظهر لنا ان رجلاً متمولاً نزل هناك مع اهله وسائر متعلقاته وهذه الحالة وخدمه وحاشيته يتركون معه . وعلى اي حال انا لم نكن نستطيع الاختفاء ولا الرجوع . وكنا اذ ذاك على ربوة صغيرة تشرف عليهم فرآنا بعض اولئك المسافرين فاخبر الباقين فاظهروا البشاشة ودعونا اليهم وهم يظنون انا من الهنديات اللواتي يجئن من اطراف المغرب على امل ان يكون معنا خبر عن الوقائع فنطلعهم عليه فاجبنا دعوتهم وذهبنا اليهم وما بقيت بيننا وبينهم عشر اقدام واذا بصاحب صوبة (صاحب الصوبة اي صاحب الرتبة العسكرية واصل الصوبة عند الاهاند الايالة كتولهم صوبة بنكال صوبة دكن) تقدم الينا وساءلنا بالبنكالية «من اين تجيئون ومن اين انتم» فاجبته بتلك اللغة «ركبنا السفينة من بلدة اكره وسافرنا فوق نهر جمنا فصادفنا قضاء الله وانكسرت سفينتنا وهلكت رجالنا ونجانا الله من الغرق»

فما ارتجاه فيه وطفق ينظر الينا بكل امعان وتأنق وفي اثناء ذلك وقع نظره على الاحذية الافرنجية في ارجلنا فاشتبه في امرنا فكلمني ثانية بلغة من اللغات الهندية الصعبة على سبيل الامتحان فما فهمها ابداً . وكان هذا الهندي من الاهاند الذين تصورت حكومة الانكليز في ابان سلطانها على الهند انها تمكنت من جذب قلوبهم فتوهمت انهم تركوا تعصبهم الملي من صميم افئدتهم فالبستهم ملابسها العسكرية وقلدتهم

وساماتها وهي غافلة انهم وان اظهروا الطاعة والانقياد لكنهم لا ينفكون عن عصبتهم . وان اللين الذي يبدونه في معاملاتهم انما هو من قبيل لين الافاعي

كان هذا الرجل في الثلاثين من عمره تقريباً وما رأيت في مدة سكني الهند رجلاً مثله في مهابة الصورة لانه كان خشناً طويل القامة جاسي الوجه نظره كنظر النسر مناً أن كثير الدقة والحذر يحط حاجبيه معاً كأنه موت تجسم في زي انسان . وكان ينظر الينا ضاحكاً مستخفاً كسنور يراقب فاراً ويسن اظافره فاذا صاده لاعبه وداعبه قبل اكله وتمزيق شكله هكذا وجدناه مستعداً لازدرادنا . آه لا أنسى أبداً وقاحة وجهه وفظاظة حالته وقد ارسل يده اليسرى وراء ظهره وقبض باليمنى على مقرعة مقبضها من الذهب ومشى الينا مشية الخيلاء وهو يلحظنا شزراً . ويوسعنا تدقيقاً وتأملاً .

فظهرت علامات ارادته بكل وضوح وكيف لا والعيون رسل القلوب

وللعيون رسالات مرددة تدري العقول معانيها وتخفيها

اما بنتي فتوردت وجنتاها من نظرته الخبيثة وتألمت ملكة عصمتها وتصبب عرق الخجل من جبينها فلثت رأسها ببرقع الحياء وقد كان القواد وافراد الجند الهندي قد تعاهدوا اذا ظفروا بنساء الانكليز ان يهتكوا عصمتهن وينكلوا بهن والعياذ بالله . وهذا الرجل استهوته ملامح التي فتنتي بها افتتاناً شديداً فجعل يختلسها النظر ويريد ان يجعلها لنفسه من غير ان يعرف رفيقاه فقرب مني وقال لي كلمات تمنعني عفتي من ان اذكرها لان الخباثة والدناءة تقطران منها . وقد سمعت من قوارص نجواه وقوارع كلامه ما لا يحتمله قلب بشر .

فما ترك ويل مجالاً له ليتم كلامه لان هذا الطفل الغيور تعجب من ذلك بين يدي ذلك الهندي وقد تعود ان يرى الهنود وقوفاً بين ايدينا بغاية الأدب . فلما رأى الهندي انتصب امامنا متكبراً بلا لطافة ويمسح وجهه بانامله السود ويضع يده على رأسه قال له بغلظة « تنح عنا » فما خرجت هاتان الكلمتان من فيه الا واحاطت بنا اولئك الجماعة دفعة واحدة واورثت هذه العبارة الجارية على لسان طفل صغير انقلاب الاحوال واضطراب الافوال فكنا كغرض تنتقل فيه المنايا ونهب تبادره المصائب وقد خيل لهذا الجميع ان عساكر الانكليز حملت عليهم بتمامها او ان قنبلة من ديناميت انفجرت بينهم فحسب بعضهم صدمة وانقضى الآخر منه وصوبت طائفة بنادقها نحونا وجرد هذا الهندي

ايقاً سينة ووقف امامنا وقد امتقع لونه واكفهر . فتصورت لاول وهلة انه يريد ان يجهزنا وما كان الامر كما ظننت فانه لما رأى انهماك سرنا وانهاك سفرنا وتحقق انا انكليزيتان وقد تجمم رفاقه على طعمه الخاصة وهو لم يتمكن من امانيه السافلة ولا بدّ له من ان يقبل بمركة رفاقه في هذه النهبة فتطايرت شرارة الغضب من عينيه وامتلا غيظاً وحنقاً واتفق معهم على اذيتنا . وفيما نحن في ذلك واذا بعدة من المتمردين وثبوا على بنتي وثوب النهد على الغزال . واويلاه من هذه الحادثة الشنعاء . . اخذوها وابعدوها عني ليقصفوا غصن عنافها . وبعد ساعة رأيتها تجيء من ايديهم وقد نفرت واستغيثت وفي أثرها رجلان يعقبانها لقضاء مآربهم وشهواتهم البهيمية

فالقت بنتي التعيسة نفسها في خيمة مضروبة صادفتها في طريقها ومن حسن الاتفاق ان تلك الخيمة كان فيها بعض الهنديات النجيبات فوجدت بينهن امرأة مسنة فترامت عند قدميها واسترحمتها فوضعت تلك المرأة يدها على راس البنت — ارادت بذلك انها اجارتها . ولما شاهد هذان الرجلان دخولها في خيمة النسوان ما اجترءا على الدخول ورجعا فما مضت بضع دقائق حتى احاط الجنود بالخيمة من كل الجوانب وهم طائعو الاحاط كاليرو القطوب والعبوس يصرخون باعلى اصواتهم ويخاطبون هذه العقيلة المسنة ويقولون « ايتها السيدة المعظمة يحقك علينا ان تتفضلي وتسلمي غرايضنا ولاتجيري هاتين الجاسوستين في ظل رحمتك انهما ايضاً مستحقتين لهذه الرعاية اتأذني لنا لنخرجهما ونصليهما قتلنا فلونا » . والراجا الذي كان قد اتخذ هذه النقطة منزلاً (الراجا والراجة بمعنى السيد) من اعيان هندستان ومشاهير متموليها اسمه « موتو كجي » يقطن مدينة اله اباد وقد تبع سائر الراجات حينئذ في نشر الوية العصيان . وتحرك بقصد الاتصال بامثاله ليتحد معهم على الانكليز وهذه الامرأة المحترمة التي اجارتنا امه

ومجمل القول انه ما مضت على هذه الحماية برهة حتى تسلطت علينا داهية دهياء وذلك ان تلك المرأة الشقية قطعت حبال رجائنا بقساوة وغلاظة . لاننا لما وردنا خيمتها كانت مشتغلة بقراءة الادعية فما ارادت قطع الصلاة ولما فرغت وفهمت انا من الانكليز اخرجتنا بغاية الذلة فاشتعلت نار الفتنة ثانية وارتفع طوفان البلايا فاحاطت جماعة الخدمة وافراد العساكر بنا وانتشب بيننا وبينهم الجذب والدفع والاخذ

والرد . كانوا يجرّوننا طوراً على الوجوه من موضع الى موضع وطوراً يرفسون بطوننا فصرنا بينهم كاعشاب يابسة تميلها الريح الى كل الجهات . وما يكون قط امرّ في ايدي الجلادين في حالتنا ولو صلبونا او القونا تحت اقدام الفيلة لكان اسهل علينا من هذه الصدمات . فتمزقت بقية ألبسة خلقة كانت على ابداننا من المقاومة لتلك المصادمة . ومن الصدف الحسنة انه انقطع وقتئذ الضيبان المعلق بالابرات من وسطي وانتثرت مسكوكاته فتركونا على الثور وانكبوا على التقاطها

وفي أثناء اشتغالهم بذلك ضممت بنتي وابني الى صدري ضماً شديداً ريثما فرغ هؤلاء السفاكون من جمع النقود وقصدوا تفريقنا بكعاب اسنتهم وظبات سيوفهم فحبونا بهذه الحالة الى مقبر نار موقدة فلما رأيناها ارتعدت فرائصنا وعلمنا انهم يريدون احراقنا فانقطعت عرى رجائنا من كل الجهات . لاننا وجدنا انفسنا نصب الحتوف ووقع نظري حينئذ على ذلك الهندي الشقي الذي كلمنا اولاً وتأسفت عن عدم انقيادي لاشارته وكلما اعتذرت اليه او استرحمته زاد قسوة وغلظة . وكان الراجا جالساً في نافذة من نوافذ غرفته المرتفعة المطلة على مقتلنا مع حاشيته بين يديه وحرس على رأسه للتفرج بحالنا . ووقف ذلك الرجل امام منظره عن بعد لا ندري هل هو لا يقدر على استخلاصنا ام هو يعاندنا لعدم رضائنا بمشاغبته فلا يعتني بالحاحنا .

الفصل السادس والعشرون

وصول الدرويش

ولما رأيت الرجاء مقطوعاً والموت واقعاً لا محالة عمدت الى خنق طفلي لئلا يبتلى بذلك العذاب الاليم . فما بقي من اختناق طفلي الا دقيقة واذا بشخص اختطفه من يدي عنفاً كأنه يريد استخلاصه فتركته له راجية حياته ونظراً لكثافة الدخان الحائلة بيننا وبينهم ما عرفت ذلك الشخص . وفيما نحن في هذه الحالة واذا بيد اخذت بكتفي وابعدتني مع بنتي من النار . فعاينت حينئذ حالة البعث والنشر كأني حييت بعد الموت وشاهدت تلك العوالم التي سمعت وصفها في صبوتي فاخرجنا تلك اليد من حومة المعركة ووضعتنا على ربوة صغيرة هناك . فمسحت عيني فرأيت رجلاً وقف امامنا كسد

حديد بل هو هيكل نحاة يكلم هؤلاء بالهندية وهم ينكسون رؤوسهم وابصارهم ويخضعون بين يديه خضوع الاسرى بين يدي الانصار . وجدت له عندهم نفوذ سيد مقتدر يحكم على غلمانه وخدامه . فما فاه ذلك الرجل بكلمة الا وجدوا امامه تعظيماً لاحكامه وانقياداً لاقامته فتوسمته وتفرست فيه فاذا هو الدرويش المعهود الذي سبق القول على وجوده على شاطئ جمنا وهو الذي اعطيته الدراهم بواسطة وبل فقد اشترى اليوم نفوسنا بهذا الثمن البخس وحقن دماءنا مكافأة لهذه الصدقة الزهيدة واعاد حياتنا وشتان بين الفعلين

يا العجب والندرة التي شاهدتها من ذلك الدرويش الذي يظهر من قذارة جسمه ومن باله انه غائص في الاوساخ والادران بحيث تستقذر رؤيته الطباع متلبد الشعر كثيف الخاط دنس الاهاب كث اللحية رث الهيئة . ومع ذلك فهم يتيمنون ببركات انفاسه و يفدونه بالاموال والارواح . فانه بمجرد قوله لهم « ان هؤلاء الثلاثة في حمايتي » تباعدوا عنا ووقفوا على مسافة منا وتضرعوا اليه قائلين « ايها السيد الكريم ايها المولى تخ عنها . لم نترحم على كبار الافرنج الذين تسلطوا علينا منذ قرون وسنين ونحن صاغرون ان اولئك الظلمة لا يراعون حرمة مذهبنا ولا يلاحظون شرف ديانتنا ولا يوفون بعهودهم التي ضمنوا بها رفاه حالنا بل هم يفعلون فظاعتنا المكايد ويسرقون اموالنا بالحيل والخديعة . لا يحترمون مساجدنا ولا يؤدون حقوق علمائنا . اطلقوا ايدي الاعتساف في اعراضنا وجعلوا اعزتنا اذلة . ويدور اباءنا اهلة . يجبرون قسوسهم على دس الدسائس ليخرجونا عن ديننا القديم الذي تدينا به منذ الفي سنة . وقد زرعوا بذر النفاق والمخالفة في قلوب سلاطيننا وراجاتنا ليتمكنوا من بلوغ مآربهم . فخلعت ايديهم عن سلطتهم الموروثة واستقلالهم الوطني . اباحوا غيرتنا الملية بتجاوب المسكرات وحرية مبايعتها . سلبوا ذخائرنا ونقودنا بالبنوك والمصانع . وهم يعدون انفسهم مع ذلك ملة متمدنة راقية مراقي التربية ويعدوننا ملة وحشية فيعاملوننا معاملتهم البهائم والدواب ونحن عندهم ارذل المخلوقات . واخس الكائنات اتركها لحرقها في محضرك ويحضر هذا الراجا وتشفي قلوبنا المنكسرة من حزازاتها القديمة »

فما اجابهم الدرويش الا بقوله « لا يمكن لكم الاقتراب منهم بوجه من الوجوه

لانهم في ظل حمايتي * كنت اعلم قبل هذا ان الدراويش لهم اقتدار خاص على الهنود لكني لم اسمع ان درويشاً يطاع الى هذه الدرجة - وبعد تلك المكالمة تركونا وبعدوا عنا وانطفأت النار الموقدة هناك ونام الدرويش امامنا في عرض الطريق . فرفعت راسي الى السماء وشكرت الله تعالى لانه جعل هذا الرجل وسيلة لحياتنا وسبباً لنجاتنا من حيث لا نعلم

في الهند دراويش لا يحصى عددهم وربما زادوا على مئة الف وكنت في مدة اقامتي في تلك المملكة قد رأيت عدة كثيرة وراعيتهم ولا ادري كيف التقينا مع هذا وجاملناه قليلاً فاشترى بتلك النقود نفوسنا . وليس هذا الا من فضل الله والتدبير والشكر حينئذ للمسبب لا السبب - ولما تلاقينا مع هذا الدرويش عند ساحل جمنا ولم نكن عرفت وقتئذ اشارة ثورة ولا امارة فتنة فسمعنا منه ثلاث عبارات (الاولى) لما تغير عليه صهري وحكم على خادميه ان يبعدوه من وسط الطريق ويطرحوه في النهر قال « مهلاً ستعم حرية الطرق ويسهل العبور المحفوف الخلائق » وصار الامر كما قال فنفذت السبل الهنود وسار الشعوب والناس يروحون ويغدون فيها من غير ان يكونوا تحت قوانين التنظيم والتأمين . (الثانية) لما وجه خطابه لزوجي قال « ستغلب عباد الله على الكفرة » أليس المسلمون قد غلبوا علينا ؟ وهم يعتقدون انهم على حق ونحن على ضلال ! (الثالثة) لما اعطاه وبلي الروبية اخذها وقال ايها الطفل هذه الصدقة التي تصدقت بها ستكون فدية لك . اما الاولى والثانية فانهما تحققتا بدون نقصان او زيادة . اما الثالثة فهل تكون هي ايضاً مقرونة بالحقيقة فيقتل طفلي ايضاً مثل ابيه وزوج اخته - ومع انها خلصتنا من موت عاجل فاني لما تصورت هذا شرعت في البكاء والعويل وكنت ابكي واتوجع وافكر في عاقبة امري وعجائب ما قدر لي واذا باصوات مختلطة وغوغاء وجلبة فعلمت ان المسافرين لما انقضت مدة اقامتهم رأوا الوقت مقتضياً للسير وهم الآن على وشك الرحيل وفي اثناء ذلك ازف الترحال وشدت الرحال فتحركت كتيبة عسكرية من مشاة الاهالي ثم خرج الراجا مع اتباعه في مركبة فاخرة تليها الخيول والهوادج لزوجاته واهالي حرمه ثم الافيال الحاملة للرحالات في الطريق

وكان عبور هؤلاء من جانب التل الذي كنا عليه ولما قربوا منا هبّ الدرويش

من نومه وصعد على صخرة وصاح بكلمة رافعاً صوته فنزل الفرسان من مراكبهم
وقبلوا يده واحداً بعد واحد ودفعوا اليه دراهم معدودة . ومروا على الترتيب حتى اتى
دور الرجالة والجمالين والمشاة فنفحوه بما تيسر لهم من دراهم وخبز ولباس . ولما مروا تمامهم
ناداني الدرويش وأعطاني كل ما اجتمع عنده فوجدت مقداراً كبيراً من النقود
والاطعمة والملابس ما يكفينا بضعة ايام . ذلك هو الحل الذي ابلينا فيه بالمهلكة
في اول ورودنا الرباطات وسراي القوافل التي تبنى في شوارع الهند .
اما وضع تلك الامكنة فعبارة عن فضاء محاط بجدران محكمة لها باب من طرف واحد
وفي داخلها بيوت ومساكن لحفظ الانسان والحيوان من الحر والبرد والامطار الهاطلة .
اما حجراتها فانها قذرة تشبه مخازن التجار ليس لها فرش ولا خدم ولا حفظة ولا فيها
شيء من دواعي العيش او الاستراحة مثل دور الضيافة التي للافرنج . وهي معمورة
مأهولة عند نزول المسافرين وخربة مهجورة بعد ذهابهم

هذا الدرويش مع قذارته لم تشمئز نفوسنا من روائحه العفنة ولا نفرنا
من اوساخه النتنة . بل كانت سيئاته عندنا حسنات وقبائحه محاسن وكنا من صحبته
في روض نضير وبين روائح بين مسك وعبير . فدلنا الى داخل الرباط تبعاً
لجيشه فاوصلنا الى حجرة صغيرة في وسطها عين والحجرة محكمة لوقوعها خلف الابنية
والذي يريد الدخول اليها لا بد له من العبور في دهليز طويل وعدة حجرات
وكان لها باب اذا اغلقه الداخل لا يتمكن احد من ان يدخلها . اوصلنا الى هناك
وخرج برهة ورجع بعد قليل فرأيناه قد ملأ غرارة كبيرة بالعلف اليابس والتبن
فرش الارض بها ثم قال لي « عندك الآن ذخيرة خمسة عشر يوماً فلا تخرجي
مع بنتك وطفلك من هذا المقام الا حتى يرحمكما الله ويجعل لكم فرج
قريب وتدبر اعداؤكم احساباً او تمر قافلة من ابناء وطنكم فتنقذكم » ثم اودعنا
ومضى . وبقينا في ذلك المقام برهة بلا حراك لولا اعناق متطاولة وآذان صاغية
فلم نسمع الا طنين الحشرات . ومع ما كابدناه من انواع العذاب قضينا ليلتنا
هذه في هذا المكان باستراحة وسكون . وفي الغداة شرعنا نفحص جوانب مأمننا
فوقعت عيني على باب صغير في زاوية من زوايا الحجرة فقلت ليت شعري الى اين
يؤدي هذا الباب وهل يمكن فتحه . فاردت كشف المجهول وتلك فطرة متمكنة بجنس

الانسان على استطلاع الخفايا . فحسبنا اولاً اننا نتمكن من قصدنا بسهولة فكسرنا قناة ومع ما سعينا وصرفنا من الجهد في فتح ما ظهر لنا بوابة ابداً ثم تعلقنا بالمثل القائل « من قرع باباً ولجّ ولج ومن طلب شيئاً وجدّ وجد » وصممنا على اجراء القصد وطالت مدة اشتغالنا بهذا اثنا عشر يوماً الى ان تخرجنا الباب من مكانه صباح اليوم الثالث عشر بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع ونحن نتصور ان باب سعادة قد فتح يفتح الابواب لنجاتنا من مضيق التعاسة ويوصلنا الى منزل الهناء .

الفصل السابع والعشرون

﴿ قافلة آتية ﴾

وما كان الامر كذلك لاننا وجدنا خلف الباب قاعة صغيرة فعلمنا انها مدخل خصوصي الرباط وهي محل اقامة محافظ الرباط وقد اغلق ذلك الباب بعد حركة القوافل وذهب هو ايضاً فيئسنا من نجاح آمالنا . فقالت آني لانيأسي لان الجدار المحيط بهذا المقام غير الجدران المحيطة باطراف الرباط وهو ادق منها بناء وكان الامر كذلك فتحنا منفذاً من هذا الجدار فوجدنا صحراء واسعة الارجاء ممتدة الانحاء ذات خضارة وطراوة فيالها من ساعة ما احسنها واصفاها ورأينا من مسافة بعيدة جماعة دقيقة تمشي الى هذا الموضع خط سيرهم بحيث لو اراد المسافرون ان ينزلوا هنالم يكن لهم بدّ من ان يمروا في هذا الطريق ثم يدخلوا الرباط . والمطر عديم الوجود في الصيف فلا نخود السماء بسائل ابداً . ولذلك فالمسافرون لايبيتون في داخل المنازل غالباً فاذا بلغوا منزلاً حطوا رحالهم في خارجه ولجأوا الى ظل الجدران . فليس علينا في مدة اقامتنا هناك خطر من العابر والمتردد وقد وردت عدة قوافل وصدرت من غير ان نطلع بها

فقالت سني بما وقفنا وراء الجدار فالاحسن ان نهيئ تحت الجدار مخرجاً وسيعاً نخرج منه الى الغابة والصحراء لتحصيل شيء نتغذى به . فقلت احذري من قصدك فانا لانأمن من دخول « مانيلا » الحية المشهورة في الهند وهي كثيرة هنا ويكفينا هذا المنفذ لترصد الطريق بضعة ايام على اننا لانحتاج لتحصيل القوت في عاجل الحال .

هذا وكنا نرصد الطريق على التوالي بنظر وصول فوج من عساكر الانكليز او ورود قافلة تستقبل اوائلها وتحتضن بولاتها . مضى على ذلك المنوال اسبوع وفي اليوم الثامن ايضاً اشتغلنا بهذا من ابتداء الطليعة وكانت بنتي في جانبي قد اخذت منظاراً آخر . فمضت اربع ساعات وما رأينا في طول الطريق وعرضه احداً واتعبنا اعيننا واتعبنا اوقاتنا بلا طائل تحته . وكان ذلك لعدم وقوفنا على قوانين السفر لدى الاهالي والافرنجيين الذين يعاشرونهم . ولو كنا نعلمه من اول الامر لما قاسينا تعب الانتظار فان الجنود يتوخون في تعبية الرباطات والمنازل والمناهل ترتيباً خاصاً بحيث ان المسافر اذا خرج من منزل يصل بعد اربع ساعات الى منزل آخر ليكون محفوظاً من المشقة حتى اذا نام واستراح تحرك من منزله هذا الى رباط آخر ولا يزال كذلك في قطع الطريق حتى يصل الى مقصده

وكانت بنتي احدّ مني بصراً لحداثة سنها فبعد ان تفرّست هنيهة قالت كأني ارى خطاً اسود في انتهاء تلك المسافة يقوى ويقرب منا رويداً رويداً ويمر بخاطري انها قافلة عظيمة . ويا ليت شعري هل تكون هذه القافلة انكليزية فنفرح لها أم هي قافلة الاحمال والخوف التي نعدها مجرد وصولها ويحتمل ان لاتكون كذلك اذ لا يمكن ان تكون مركبة من المكارين واحمال التجارة . بل يمكن ان لا تكون كذلك ايضاً ويلوح لي انها مشتملة على جماعة من التعساء الذين اخذ الله بنصرهم على ظهره ... يفرون من ايدي الاشرار . والذي اوقعنا في تضارب الافكار سواد هذا الخط المرئي فان اهالي تلك القافلة اذا كانوا من الاهالي فلهم ملابس بيض والابيض لا يرى اسود . واذا كانوا من جنود الانكليز فملابسهم تكون حمراً كما هو المعمول المتداول . وخلاصة القول ما زلنا في تردد واشكال والقافلة تقرب والسواد يتحدد شيئاً فشيئاً واذا ببنتي صاحت قائلة « قرب القادمون وهذه القافلة مركبة من خمسين او ستين امرأة لهن البسة طوال سود ومعهن عشرون نفراً من عساكر الانكليز بعضهم في اول القافلة والباقون في آخرها »

فلما اصبحوا على مسافة قريبة من مسكننا حصل لنا من ملاقاتهم طرب وانبساط حتى كدت اطير اليهم باجنحة الاشواق ولا غرو فان الغريق يتشبث بكل عشب وصحت باعلى صوتي وقلت هذه النسوان من الراهبات الكاثوليكيات اللاتي يسكن

في دهلي وايقنت انه قد اقتربت عروس التمني واقتربت ليالي السعادة فعلينا ان نستقبلهن بكل الاستعجال . ولكن آه ان ارتياحنا لم يطل اكثر من لحظة وجرت اقلام القضاء على خلاف امالنا والانسان لا يدرك كل ما يتمناه وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن . وذلك اني لما تأملت باصحاب القافلة وجدتهم عاجزين عن انقاذنا فقلت ضعف الطالب والمطلوب فان اولئك الامهات والراهبات الروحانيات اللاتي حسبناهن حور الجنان او ملائكة الرضوان ورجونا منهن وقاية حياتنا كن شريكات معنا في الشدائد وما العساكر الذين معهن الا شرذمة اصيبوا بالجراح وانكسرت عظامهم وثقلت عليهم المرض بالدماء فنزلوا بهذه الحالة الخربة من الحرب ولما حطت تلك القافلة التعيسة رحالها بقاعة الرباط خرجنا من الحجرة وتعلقنا باذيال الراهبات وكلمناهن بالانكليزية ونحن نحسب جماعة من الانكليز يقتفون بهن وتحصل لاهالي القافلة قوة عاجلة من العساكر

وبعد الاستفهام ظهر لنا انهن خرجن من دهلي يطلبن الاكره ليلتقين مع سائر الراهبات المنسحبات ثم ليذهبن الى الله آباد فالتقين في الطريق بجماعة من الطغاة ورأين الطريق مسدودا من تلك الجهة فمضين الى مدينة كاونپور وفي اثناء طريقهن جمعن جرحى العساكر مع بعض النسوان اللواتي خلصن من مقتل مراد اباد وفرخ اباد خدمة للانسانية ومراعاة للاوجبة حتى اعظم عددهن واجتمع الجميع وما قولك في قافلة مؤلفة من النساء العاريات المكشوفات الرؤوس وعليهن ملامح الحزن ومظاهر التأثر والاطلال في افواههم الذبة الذابلة وغشيات كوكب الوحشة قلوبهن وشتت الجبهة جموعهن . ورجال قوض الدهر منازلهم واخذت الحوادث بثأرهم يجرعون غصص الحياة ويتمنون راحة الممات . اولئك البنات والابكار التعيسات والعجائز والعرائس الانيسات مع وقوعهن في شباك المصائب كن في رجاء عظيم ان عساكر ملكة انكلترا وامبراطورة الهند وكتائبها المنصورة التي ملأت الآفاق والامصار صوت صولتها وقهر الاصقاع والاقطار سوط سطوتها لا يقدر احد ان يتغلب عليها وانها ستنال الظفر وتقمع الفتن وتخلصهن من المهالك

يا لهذا الامل الباطل والوهم الذي ليس له حاصل . نفوس معدودة في ايادي غير معدودة . بعد ما وقعوا في مخالب الجنود كيف يؤملون الظفر ويأمنون من طوارئه

الخطر هل تنتج شوكة امبراطورة الهند نتيجة هؤلاء التعساء الذين يقاسون ضيم الخسف والازدراء وهل يرتقي فتى تلك الغاية العظمى بهذه الاوهام الناشئة عن التعبات البشرية . كلاّ :

ولا يخفى على المتنافسين ان الظلمة يحملون مجال التزوير وحبل الحيل لاستيفاء شهواتهم الخبيثة وهم على اقسام : فان طائفة منهم لا يكترثون بلوم لائم ويعملون شن الغارات جهاراً . ليلاً ونهاراً . ويترددون في الامصار . مثل المغول والتاتار وطائفة يلبسون ملابس التلبيس . يسلكون طرق التدليس . يتمسكون بعروة التمدن وصفاء النية وتهذيب الاخلاق و يتقمصون بجبال التربية ويحسبون انفسهم محبين لجنس البشر فيتخذون سيوفهم ويهجمون على الملل والاقوام الذين لا يعرفون دسائسهم فيوقعونهم في الشباك و يتمكنون من مقاصدهم باستعمال المكايد والالعاب المسماة بالحيل السياسية فليحترز المرء من هؤلاء المتمدنين الجائرين فانهم يدعون العدالة وهم على ما هم عليه . تلك حالة الانكليز مع الهند والهنديين فان الانكليز كانوا يحسبون الهنود قبل الثورة احقر الملل . ويقولون اولئك كالانعام بل هم اضل . و يظنونهم امة وضاعة ومظهر استكانة . لكن الهنود لما شاهدوا اجحاف الانكليز واعتسافهم اظهروا لهؤلاء المتمدنين انهم عند الضرورة يجتمعون لاستخلاص رقابهم من قيود العبودية وينفضون العار عن مناكبهم واعطافهم . وانظر ما اسرع ما تبدلت تلك الاستكانة بالانفة والوداعة بالخشونة . فابوا ان يرضوا بالذلة فازالوها بمراهف السيوف وسنان الرماح

وعند ذلك فهم المتمدنون رصانة عزمهم وصلابة شكيمتهم وهم لا ينسون تلك الواقعة ابداً وما احسن ما قال بعض الحكماء

لا يستخفن الفتى بعدوه　　ابداً وان كان العدو قليلا
ان القذى يؤذي العيون قليله　　ولربما جرح البعوض الفيلا

على ان الهنود ليست بينهم وبين الكاثوليكيين عداوة لان القسوس والرهبان والراهبات كانوا يعالجون مرضى الاعانات ويربون اطفالهم ايتاماً لمرضاة الله كما ان اولئك النسوان مع كونهن في اقصى درجة الابتلاء جمعن جمعاً كثيراً من الذكور والاناث في ظل رعايتهن للذهاب الى مأمن كما نوهنا به آنفاً قبيل هذا : فارادوا البيتوتة في هذا الرباط ثم الحركة منه عند طليعة الصبح .

الفصل الثامن والعشرون

﴿ الخوج الهندي ﴾

وقد قدمنا انهُ لا يطاق للمسافر الاقامة في الحجرات في فصل الصيف لاحتباس أهويتها بل يقيلون في ظلال الجدران · اما تلك القافلة فحالما وصلت اهاليها الى حجرات الرباط اتخذوها منزلاً على خلاف الرسم المعهود وما اكتفوا بذلك بل اغلقوا ابوابها من الداخل حتى ما بقي الى ظهر اليوم صامت او ناطق في قاعة الرباط · فنامت المرضى في حجرة والمجاذيب في اخرى والصبيان والنسوان في واحدة واستراحت الراهبات في المرقة الحمامية فاصبح المكان اشبه بالمستشفى · وبعد برهة قرب وقت الصلاة فانتصب القديس المسمى بول قائماً للامامة واقتدى به كل فرد من افراد الجماعة من بروتستانتي وكاثوليكي من دون استثناء · وهذه العبادة لها مزية خاصة في احوال الشدة فذكروا انهُ مخلصون له الدين ناسين اختلاف الطرق وفروع المذاهب الداعية لتفريق الكلمة الجامعة الدينية واشتغلوا باداء وظائف العبودية بخضوع وابتهال من غير ان يعتقدوا ان طريقهم التي يسلكونها حقة وغيرها باطل · وبعد الظهر بثلاث ساعات نزلت في حوالي مسكننا هذا طائفة من السيارة وبعد ساعة امتأنوا المسير في طريقهم من غير ان يطلعونا · وان كان الواردون اقل منا عدداً لكنا خفنا ان يخبروا الاشرار بمقامنا ويشاركوهم في الاغارة علينا ومن الاتفاقات الحسنة انهم مروا من غير ان ينتبهوا لنا فسكنت قلوبنا · ولما دنت الشمس من الغروب ملأنا القرب والاواني بالماء واعددنا علوفة الدواب ووعدنا انفسنا بالمبيت تلك الليلة في امان على ان نصبح براحة · وفي اثناء ذلك اغلق محتفظ الرباط مصراع الباب وفيما هو يغلق الآخر راى اناساً يخفون انفسهم خلف الباب وهو يقول « اني ارى فرساناً يتقدمون » فنظرنا الى الطريق فوجدناه صادقاً في قوله فمن اي الفرق هؤلاء الفرسان يا ترى هل هم من ابناء وطننا ام من اعدائنا · ورأينا عليهم الملابس الحمر وكانت العساكر الانكليزية والهندية تتخذها لمثل هذه الالبسة فلم يرتفع حجاب التردد والوحشة عن خاطرنا · وكان بين جماعتنا المحصورين هناك رجلان سالمان احدهما رئيس الموسيقى العسكرية سابقاً والآخر بغاء باشي اي بغاء باشي اي رئيس خمسين نفراً من المشاة او الفرسان مثل يوز باشي ودهباشي · وهذه الالفاظ

مركبة من التركية والفارسية ! فوضعناها خلف الباب للغاية بحيث لايخرج من جهتنا صوت صهيل فرس او نهيق حمار فينبه اولئك القادمين الى وجودنا فشددنا افواه الدواب بالحبال لانا كنا نعلم انهم لايعرجون الى الرباط على ماجرت به العادة

طالما كان الانسان مغموراً في بحور النعمة فانه يظل غريقاً في نوم الغفلة واذا ابتلي بمقتة او اعترته نكبة وكان ذا رأي صائب وفكر ثاقب يحترس من المخاوف والنوازل اشد الاحتراس . ولكوني ابتليت بالسوانح والمصاعب والشدائد والمتاعب اكثر من رفيقاتي لم استطع الجلوس بل شاركت ذينك الرجلين في ملاحظة الطريق وكان ابني يلعب في ساحة الرباط مع الاطفال وبنتي تحادث مع النسوان فما مضت دقيقتان حتى سمعت النجاء بأني يصيح صياحاً مخيفاً وقد تلعثم لسانه من الدهشة واستولت الرعشة على يديه ورجليه وجعل ينتفض كقصب يرتعد في هبوب الرياح العاصفة ثم انتبه وقال هذا هو الفوج الهندي الذي كنت مشتغلاً في خدمته . فكان لقوله وقع شديد على نفوسنا على انه كان لنا قليل رجاء انهم اذا عرجوا بنا يستريحون ساعة ثم يذهبون

فحدث غير ما املناه فان الفرسان حطوا رحالهم ونصبوا خيامهم واخذوا سرج الدواب والقوا عليها الجلال . ثم اوقدوا ناراً واشتغلوا بطبخ الغذاء وظهر انهم يريدون الاقامة خارج الرباط وليالي الهند في فصل الشتاء اثنتا عشرة ساعة بسبب قربها من خط الاستواء . وليت شعري هل يدخل الرباط احد من تلك الجماعة في مدة اقامتهم هنا وهل يرتفع من دوابنا صوت ينبههم الينا نعوذ بالله من ذلك .

انقضت ساعة وما علا صوت فدخلت صحن الرباط ووردت حجرة الجرجي فرأيت القسيس قد هيأ اسباب عبادته وبسط سجادة طاعته يريد ان يصلي صلاة القداس وكان ذلك امراً جديداً عندي لاني بروتستانية وهو يصلي على طريقة الكاثوليك . ولما كان القصد الاصلي تقديم واجبات الضراعة الى المعبود الحقيقي اتفقت مع الجميع وصلينا معاً . وفي اثناء الصلاة صهل فرس خارج القاعة فاجابه فرس من الداخل فصهلت الافراس كلها دفعة واحدة فاجابتها اصوات دوابنا وتحرك الفرسان عندئذ الى الرباط وكسروا الباب ودخلوا كالسيل الجارف الى حجرة الجرجي وسلوا سيوفهم وكان بول مشغولاً بالصلاة فاطلقوا مسدساتهم عليه

فامتلأ الفضاء بدخان البارود · ومن العجائب ان الرجل مع كونه هدفاً للرصاص ما زال واقفاً منتصباً فهربوا ولم ينالوه فتساقطت الراهبات عند اقدامهم والتمسن العفو عنهن · فصاح رجل متعصب من الاهالي وقال لنقول لا آلهة الا وردنا « ارني معبودك » فاخرج ولي الصليب من عنقه وقال « هذا هو معبودي ونحن اتباع هذا الرسول لا نكترث بالموت ولا نبالي بالقتل ولا تزيدنا الشدائد الا تمسكاً به » لقد صدق فيما نطق به لان رؤساء الاديان والملل لولا الشدائد والاضطهاد لم ترسخ شروعتهم ولا علت كلمتهم وبذلك تأسست دعائم المذاهب حتى لمعت نجومها المشرقة في ظلام الغياهب

ثم قال الجنود للراهبات نعفو عن اراقة دمائكن على ان تؤدين فدية من النقود فناديت قائلات لو كان لنا مال ما وقعنا في هذه المحنة فقالوا لا نقبل ذلك ولنحبس ملابسكن وجيوبكن واحدة بعد واحدة · فشرعن بالمرور من امامهم بالترتيب حتى دنت نوبتي فتقدمت متزلزلة وكنت بلباس اهل البلد ولكنهم عرفوني وساقوني الى حجرة اخرى فقالت احدى الراهبات خلوا عن تلك المسكينة · ومع تعسف اولئك المتعصبين لا ادري لاي سبب تجاوزوا عن قتلي لما سمعوا كلامها وليس ذلك الا من مشيئة الله · ولما وجدت نفسي في كنف حماية تشوش خيال ابني وبنتي فصيري وانا لا اعلم هل هما في عالم الاموات ام في عالم الاحياء وكنت خائفة من خروجهما المتفش عني وكأني بهؤلاء الخوارج يساقون كقطيع غنم الى المذبحة · ماذا افعل الآن وياليتني كنت بعوضة ضعيفة لأطير اليهما اوليتني كنت نملة صغيرة لا تنال تحت الاقدام واوصيهما بان لا يخرجا من منزلهما بل يطلبا النجاة من الله وينتظرا حتى ترتوي اولئك السفاكون من شرب الدماء ويطفي لهيب غضبهم فيرجعوا · وخلاصة القول ان القتل والفتك دام ساعة كانوا يبقرون فيها البطون ويحزون الرؤس ويريقون الدماء · ولما ادلهم الليل اشعلوا مشاعلهم وبادروا بتعرية اجساد القتلى وسلب الثياب وكنت وقتئذ في غاية القلق على ولدي مخافة ان يكونا قد انخرطا في عداد المقتولين

ولما قضوا اوطارهم من تأييد الجور والظلم اضرموا ناراً في قاعة الرباط واشتغلوا بتقسيم الغنائم وكنت مع الراهبات في زاوية تنظر اليهم · فرأينا رئيس

هؤلاء الجماعة جاثياً على ركبتيهِ في جانب ولم يشاركهم في الجناية من اولها - ولكنهُ لم يمنعهم من اجراء مقاصدهم الاَّ حين ارادوا ان يؤذوا الراهبات فانهُ زجرهم ونهاهم اما انا فكانت وساوسي على اطفالي تزداد لحظة بعد لحظة وانا اترصد فرصة للدخول الى الحجرة للبحث عنهم فسنحت لي فرصة لنيل المقصود وذلك ان رجلاً من الجنود كان قد اصابهُ جرح في صدره وما زال الدم يتدفق منهُ حتى اغمي عليهِ فحسبوهُ ميتاً وما عبأوا بهِ ثم افاق من غشيهِ ونهض وقال لا تحسبوني ميتاً فان فيَّ رمقاً واذا ربطتم جراحي ارجو ان لا اموت فاضطر اولئك الاشرار ان يلتجئوا الى الراهبات فان العناية بالجرحى من شرائط الرهبانية فذهب بول مع راهبتين الى هذا الجندي المجروح فرافقتهم في عيادتهِ ولما رأوا الجرح طلبوا ماء لغسلهِ للوصول الى فوهة القرحة فانتهزت الفرصة وقمتُ وحملت اناء لتقديم تلك الخدمة وصببت الماء وكانت حذاقتي هذه الاضطرارية عرأى من سائر رفقاء ذلك الرجل الذين تجمهروا حول الراهبات فرقت قلوبهم ونظروا اليَّ بعين الحلاوة اما المجروح فان روحهُ فاضت بعد ساعة على اثر تلك الضربة القاضية ومن النوادر ان هذا الجندي هو الذي اذى الاسبس اولاً. فقال بول « انظروا الى هذا الرجل الذي مات امام ابصاركم فانهُ هو الذي اعترض عليَّ واراد مشاهدة معبودي وسحب الصليب من عنقي عنفاً فها اني اغسلهُ وارسلهُ الى الخالق الذي بيدهِ ازمة كل شيء ليرى جبروت الحق » فاغتنمت الوقت ودخلت الحجرة ولم اخط خطوة حتى عثرت رجلي بجثة فسقطت على وجهي وتلطخت ثيابي بالدماء وما زلت امشي وقد داخلني وحشة شديدة وقلت لا بعد ان الطغاة قتلوا اني وبني ايضاً واوشكت ان اصيح واقول « ايها السفاكون استحلفكم بالله خذوني وقطعوني ارباً ارباً هل حسبتموني دهرية فعفوتم عني لا تنظروا الى ضعفي ومسكنتي فاني من الد اعدائكم » واعترف للقارئ اني اطلقت عبارات كفرية فاذا لا امني والله فارجو ان لا اصاب بعقابي . ثم وصلت باب الحجرة وناديت الاولاد فما سمعت جواباً وكررت النداء مراراً فما خرج نفس من متنفس فازدادت وحشتي وقلت يا الهاهي وخيبة املي قتل طفلي وبنيّ . ثم تقدمت خطوات الاقدام كخائف مترقب وناديتهما ثانية الى : « بول » فسمعت رفقة جواباً خفت بهِ لوعتي وهدأت روعتي وقلت لها من عندكما فقالا عندنا ابراهام . فارتحت ارتياحاً شديداً من تلك الصدف ولوحت لهما بعدم

الخروج وان ينتظراني عند طلوع الشمس وعدت مطمئنة الخاطر وجلست عند الراهبات وهنّ يرتعدن من برودة الليل

الفصل التاسع والعشرون

﴿ اذا جاء القدر عمي البصر ﴾

والخلاصة اننا قضينا هذه الليلة ولما طلعت الشمس هبّ الاشرار من نومهم وحضروا الحركة وقوضوا خيامهم في وقت قريب وانتشروا افراداً وازواجاً وحملوا مقتوليهم في العربات ليطرحوهم في نهر جمنا على حسب الرسم الذي تعودوه · ولما خلت الاطراف من الاشرار قالت لي راهبة ان كنت مصممة على السفر معنا فانتظمي في سلكنا وانت تعلمين ان الهنود لهم رعاية خاصة في حقنا فتكونين مطمئنة من الصدمات · قلت نعم ألكنكن تقصدن الذهاب الى اله آباد ومن هنا الى تلك المدينة ستون فرسخاً اما نحن فننوي الذهاب الى مدينة كاونبور ومسافتها الى هنالك اثنا عشر فرسخاً · فقالت الراهبة لنا في اله آباد معبد حصين من دخله يكون آمناً مطمئناً فقلت لها اما تعلمين ان الجنرال وهار ايضاً في كاونبور بلا لأ كوكب اقباله ثقة · فاجبن باجمعهن ان فرضنا ان الجنرال المذكور كانت له قدرة في الامس يمكن ان لا تكون اليوم والعاقل لا يترك المقر المعلوم لاجل مقر موهوم وبعد ذلك رأينا ان ندفن جثث القتلى بان نجمعها في حفرة لانها كانت مطروحة على الارض بشكل قبيح لا يقتضي ناموس احد ان يتركها لان هؤلاء السفلة ما تركوا عملاً شنيعاً الا فعلوه في النسوان قبل القتل وكنا عاريات الابدان مكشوفات العورات فجمعنا الاجساد ووضعنا بعضها فوق بعض وحينئذ خرج من تحت الزبالة والارواث المجتمعة هنالك رجل تفرسنا فيه فاذا هو الجلاد بالحي وكان لما دخلت الطغاة الرباط اختبأ تحت الكثافات حتى سلم من الآفات لكنه كان مندهشاً مضطرباً لخوفه على زوجته واطفاله لانه كان يتصور انهم قتلوا وكانت عبرات الحسرة بادية على وجنتيه فخطر ببالي الامرأتان اللتان عند اطفالي في ذلك المحرق فبشرته بذلك وانطلقنا الى الخلوة فوجد زوجته واطفاله ولما فرغنا تحركنا الى اله آباد وبلغنا وقت الظهر الى ساحل نهر فوقفنا في ظل شجرة عظيمة

لدفع التعب والحوادث التي اتفقت لنا في هذا الطريق مفصلة لكنها ليست قابلة القيد في هذا التاريخ الوجيز

وبعد يومين من حين السفر رجعت بعقلي الخفيف الى متابعة رأيي السخيف في الذهاب الى كاونپور وكلما اصرت الراهبات على الانصراف من خيالي ما انصرفت وإلى القدر المحتوم الانقياد بما قضي من الازل وكنت اتصور انا بعد الورود الى كاونپور نهيئ اسباب معاشنا ولوازم انتعاشنا وكان البخاء باعثي برغبتي في ذلك الطريق . والخلاصة انا ودعناهن في اليوم الرابع وتحركنا الى كاونپور وما زلنا نقطع الطريق حتى اشرفنا على المدينة ولا نعلم ان دونانا صاحب (ناناصاحب) المشهور الذي هو رئيس فرقة طاغية الآن مالك كاونپور ومضافاتها والجنرال وهلر الذي عليه جل اتكالنا وباستظهارنا محصور في المعتقل الظالم وقد اطلعنا على ذلك بعد قطع المسافات والوصول الى ساحل نهر كنك وقد بلغنا هذا المكان بوضع غريب قال عساكر ناناصاحب كانوا يحبسون ضفاف النهر ليأسروا الافرنجيين الذين ينوون الذهاب الى لكنو والله آباد و بنارس من هذا الطريق فشاهدنا بعض مسلمي الرستاق ورق لحالنا وقال ان كنتم تريدون الحياة فعليكم بالاحتراس من دخول المدينة واختفوا في حقائل نهر كنك وغرائسه الملتفة عسى ان يحصل لكم فرج من الله ثم المفترقة المروءة وبذل لنا مقدارا من الطعام واللباس فوق تلك الحفاوة والاشفاق . فقعدنا حيث لا ينفع الندم من عدم سماع نصيحة الراهبات ولو اصغينا الى نصائحهن ولم نغتر باقناع آرائنا الخفيفة وعقولنا الناقصة لكنا الآن على غاية ما يرام من الامن والراحة والرغد والدعة ونعوذ بالله من حماقة العقل وعماوة البصر - هذا وكانت الشمس حينئذ قريبة من الزوال فقلت لرفيقي اذا اظلم الليل فلندخل المدينة فصدق رأيي وذهبنا الى حوالي الحصار فما وجدنا احداً من مخالف وموافق وقد احمرت منائر المساجد وقبب المعابد من انعكاس الشفق عليها ونهر كنك يجري ويلتوي بحذائها كثعبان من الذهب فزالت بعد عدة دقائق حمرة الشفق وخبى الشفق ثم اسدل سجف الظلام رويداً رويداً واختفت زوالها اعلام الابنية وآثار الرجاء عن انظارنا فصرنا كالاحياء ووقعنا من شدة التعب على غور الخيار وكان البخاء باعثي لعلمه بالوسوق يخرج في بعض الاحيان

آلة الموسيقية ويشغلنا بايقاع الانغام تنشيطاً للروح · اما في هذا اليوم فكانا احس بنكبة قريبة او عزم على ادبار عاجل فكان منقبضاً على غير عادته · وفي هذه الحالة سمعنا خفق النعال ورأينا فرقة فرسان كانوا خمسين نفراً تقريباً مروا من امامنا راكضين افراسهم في اشد ما يكون من التعجيل · فما مضت لحظة حتى رأينا طائفة اخرى فلاح لنا ان المارين اولاً من الفئة الطاغية وهؤلاء القادمون انكليز فقعدنا في قارعة الطريق وانتظرنا وصولهم ولما وصلوا تكلمنا معهم باللغة الانكليزية فوقفوا باجمعهم دفعة واحدة فشرحنا لهم على سبيل الايجاز قصتنا · وكان زعيم تلك الجماعة شاباً لا يعرف معنى المروءة او الشهامة فما اكترث بخطابنا وقال « نحن معذورون لاننا لا نقدر على قبولكم · وقد غرقنا في تيار الحيرة ولا نعرف مخرجاً وملجأ لحفظ نفوسنا لو كنتن رجالاً اكفاء لامكنكن الاقتدار على الحرب والفرار عند الفاقة والانهزام اما الآن فماذا نعمل بنسوان واطفال صغار وهذا الرجل الذي معكن ان كان يريد المرافقة فليأت » فقال النجار باني لا يمكن لي ترك زوجتي واولادي ولما سمع ذلك الجواب ثنى عنانه عنا كرهاً وانفة ومضى من غير ان يتكلم كلمة واعرضنا عما قاله انا ورفيقتي مع زوجة النجار الذي وعدوا في اثر ذلك القائد رئيس الجماعة وقلنا « بالله عليك ايها الغيور العظيم الشأن وخادم مملكة انكلتيرا السنية اين نوعك فاين رعاية الحقوق وملاحظة الانسانية ولوازم البشرية الست شاباً تريد بعد الصيت وشرف الذكر فاين حميتك وفتوتك هل يجوز في قانون مروءتك ان تتركنا في هذه الورطة الوبيلة بعد ما خلصنا من تلك المخاطرات ولقد بلك كيف تتركنا في بيداء الحيرة والنصب · تصور يا هذا ذلك ان كانت امك واختك في حالنا ما الذي كنت تفعله » فضحكت فرسه وقال « اطلب سلامتكي » ومر من غير ان يجيبنا فصرنا الخيب من ان نقبض على الماء ومع ذلك ما قطعنا حبل الرجاء وقعدنا وتمسكنا به واخذنا بعنان فرسه وذكرنا اسمنا واسامي ازواجنا وما اخفينا دقيقة من ذكر اصلنا ونسبنا واصحابنا ولما فهم انا صواحب حسب ونسب وان صهري كان معه في الخدمة العسكرية رق لحالنا وقابلنا بوجه طلق ولاحت على وجهه تباشير الرضاء · ورضي ان يذهب بنا الى مأمن الجبال وطلب وقعد كل واحد منهم واحدة منا من خلفه على فرسه وما زالوا ماشين حتى وصلنا مأمن السردار المذكور وكان قد حاصره نانا صاحب واشتدت

المحاصرة حتى وهنت قوى المحصورين ونفدت ذخيرتهم وما وافاهم مدد . وبعد الاقامة بضعة ايام رأوا ان التوقف في المتشق بهذه الحالة لا يجدي نفعاً فرضي السردار بالتسليم على شرط التأمين وسلامة الذين في معيته ليعبروا نهر كنك الى مدينة اله آباد . ولا اشرح شروط تسليم هذا السردار وخروجه من المعسكر لان المؤرخين يثبتونها في طي تواريخهم

الفصل الثلاثون

﴿ الخروج من المتشق ﴾

وفي اليوم الذي انتخب لمبارك كان يوم خروجنا من المتشق فاقعدوني مع طفلي وبنتي في عربة مستقلة والباقون في عربات اخرى وساقوا نحو الساحل وكانوا قد اعدوا عدة كثيرة من السفن الصغار والزوارق وحلف نانا صاحب ان لا يضر شرٌّ لشخص الجنرال وهلر واتباعه الذين في حمايته . وكانت العساكر الهندية قد اصطفت في طرفي المعبر ووراءها صفوف ضخمة وألوف من الناس وما اصطفاف الجنود الا لا يهامنا انهم حضروا لمحافظتنا . فعبرنا من وسط الصفوف حتى بلغنا شاطئ النهر وركبنا السفن

ولما تحركت سفينتنا سجدت لله شكرًا وقلت لقد انبعث دوحة الصبر وغيض طوفان البلايا واستوت سفينة آمالنا بعد موج الهلاك على جودي النجاة . وقصرت ايادي الاعادي من التعدي والتطاول وحال الماء بيننا وبين الاشرار فما انطبقت فمي عن التشكر واذا بهؤلاء الاراذل الانذال اطلقوا المدافع الينا من كل الجهات فخرقت القنابل تلك السفن واغرقت جمعًا كبيرًا وبقيت سفينتنا ثلة عظيمة وكنا على وشك الغرق فساقتنا الريح الى الساحل حتى خرجنا الى البر .

ولا ريب ان تلك الوقائع تثبت في بطون الكتب والصحف مع ما ارتكبه الاوغاد من المنكرات وكيف نقضوا عهودهم فخدعوا العساكر والقواد واغتروا بظواهرهم حتى قتلوا اشر قتلة وحينئذٍ اختبأ الجنرال وهلر في غيضة فاسروه على الفور وقتلوه من

ساعتئذٍ انا انا مع بنتي وابني فوقعنا فوق الرمال وجعلنا الموت نصب اعيننا ننتظر ان يحملوا علينا ويسفكوا دماءنا . اغمض عيني من غلبة الخوف وافتحها في بعض الاحيان فلا ارى الاّ بقر البطون وتقطيع الابدان ورمي الاطفال الصغار الى الهواء وتلقيها بالنصال في اثناء سقوطها فاختبأت طفلي تحت جسدي وغمت فوقه كدجاجة تحضن فراخها ومما يستحق التعجب ان الاشرار كانوا يجعلون رؤوس القتلى وارجلهم وايديهم آلة اللعب والفرح يطرحونها من مكان الى مكان كاطفال المدارس اذ يلعبون في الشتاء بكرات الثلج

ولم يزل الفتك والقتل جارياً حتى دخل نانا صاحب مع جماعة من ارباب المناصب في هذه المذبحة فاشار الى الاشرار فاغمدوا السيوف فجمعنا نانا صاحب وكانت بقية المذبحة من الذكور والاناث مائة وعشرين شخصاً . فامر بادخالنا في المدينة فاوردونا الى مكان لمن وهبوا اسباب معيشتنا . وهذا اول مرة رأيت هذا الشخص اعني نانا صاحب وقد هاجت الضمائر وتنوعت الاقوال في حقه على اني ما شاهدت منه الاخيراً . فليقل كل احد ما يقول . فاني لا احسبه مقصراً في محافظتنا ولا اظنه سبباً لهذا القتل الاخير بل وجدته شاباً طلق المحيا متين الحركات جداً في الامور غير هازل تلوح على سيماه علائم الكفاءة ذا قريحة حسنة يبلغ من العمر ثلثين سنة ولا اتردد في قولي هذا لان اولئك الناس الداخلين في حوزة حمايته او اطاعوا اوامره ما وقعوا في المهالك الآتية

والذي سبب نقض العهود انا لما ركبنا السفن لنعبر نهر كنك بعد تقرير الشروط اشتعل مستودع البارود الكائن في المستشفى النظامي على حين غفلة من غير ان تظهر علة الاحتراق فظن الاهالي ان جمعاً من الانكليز تحصنوا ثمة بحيال المدافعة والمخاصمة وكان الجنرال هاولوك على مسافة قريبة من كاونبور وقد جاء لاستخلاص وهلر فتقوّت عندهم تلك الظنون فحكموا باعدامنا قاطبة . وبعد ان ظهرت لهم براءتنا من هذه التهمة نجانا نانا صاحب وتعهد بحراستنا . ومجمل القول انه امتدت اقامتنا في ذلك المأمن خمسة عشر يوماً على شرط ان لا نتخابر مع الخارج مطلقاً . فما تركت بعض النسوان رذائلهن فاعمى القدر ابصارهن وشرعن بالمكاتبة والمخابرة من داخل المأمن بمعاونة الجواسيس الذين كانوا يربطون المكاتيب بالاحجار الصغار ويرمونها

من الخارج الى داخل حائط الحصار . فعلمنا ان عساكر انكلترة الذين في معية الجنرال هاولوك هزموا اتباع نانا صاحب وسيدخلون المدينة قهراً في اقرب وقت . وفي اليوم الثالث سمعنا طلقات مدفعية متوالية كانت تخبرنا ان في خارج المدينة انقلاباً عظيماً .

وفي الحال دخل مأمنا مأمور من مأموري السردار وأمر باخراج النسوان اللاتي حاربن الخارج فاخرجوهن فاخرجن الآ وقتلن ثم هجم الاهالي بهذا المأمن وشرعوا باراقة الدماء وازهاق الارواح . كنت أرى الموت واقفاً يحصد الرؤوس ويجني نفائس النفوس . وما زالوا يأتون على الصفوف واحداً بعد واحد . ولما انتهت الكتابة الى الافزع ولم يبق في النفوس منزع بلغت نوبتنا فسحبوا بنتي بخصلة من شعرها وقتلوها ثم اخذوا طفلي وقتلوه فسقطت وما فهمت ما فعلوا بعد لاني مكثت ثلاث ساعات في حالة الاغماء ولما فتحت عيني وجدت المهج قد سالت من مسايل الابدان وجرت الدماء كالانهار في الوديان وشاهدت رجالاً ونساء من بقية الانكليز قد اجتمعوا حولي ولكن الحزن غلب عليّ فطفقت ابكي وانوح واشهق واصيح . آه هل على كرة الارض امرأة بتعاستي ومع هذا لا يدركني الموت ولا يريحني لئلا ارى تلك الاهوال التي تنفطر من معاينتها الاكباد . ولو كانت امرأة حجراً لماتت قهراً . او حديداً لسالت صديداً

لو ان ما بي بصخر اليد لانصدعا   او بالثرى ثار او بالخالق انقلعا

لو ان ما بي بطير الجو لانتثرت   رياشه وغدت اوصاله قطعاً

وخلاصة القول ان الجنرال (هاولوك) فتح المدينة بعد بضعة ايام وارسلني من كاوان بور الى اله آباد وسافرت منها الى بنارس ثم كلكوتا . فركبت منها باخرة (كلومبو) حتى اتيت باريس ولاقيتكم . وهذه قطرة من بحر نوائبي وهاك ايها المطالع الكريم شرح قصتي . فما افعل بعد ذلك وقد قيل غاية كل متحرك الى سكون . ونهاية كل متكون ان لا يكون . وليعتبر المطالعون بمجاري حالاتي وليؤدوا حقوق النعم والامنية والرفاهية التي يتنعمون بها فان يد القضاء فوق ايديهم . تطرح ارباب الغنى في مطارح الذلة وتقعد اصحاب الغنا . في رماد الفنا . ولله العزة يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير .

خاتمة الرواية

قد حصل الفراغ ولله الحمد من تعريب هذه القصة وتبييضها في تاسع عشر شهر جمادى الآخرة من شهور سنة ١٣١٦ الهجرية الموافقة مع سنة ١٨٩٨ الميلادية · وارجو من الادباء ان يغضوا طرفهم عما يرون فيها من الاخلال والاجحاف فاني انما اقدمت على صناعة الترجمة من باب التطفل وتطاولت على ذلك طمعاً في طلاوة الجديد مع قصر الباع وضيق الذراع واملي وطيد انها تقع موقع الاستحسان لرقة ما اشتملت عليه واقول في ختام كلامي

اللهم ادم فينا نعمة الامن والامان ووفقنا ان نرى الحب والولاء قائماً بين الامة المحمدية والجامعة الاسلامية لتتفق كلمتنا وتجتمع سواعدنا فنتخلص من عبث الاجانب فان هذه سعادة عامة وغبطة تامة وصلى الله على نبينا الاكرم وعلى آله وخلفائه العظام ما توالى الملوان وتعاقب القمران (المترجم)

« ميرزا يوسف خان »

(بتبريز)



مؤلفات جرجي افندي زيدان منشئ الهلال

(١) ﴿ فتاة غسان ﴾ هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم واول اسلامهم مع ذكر عاداتهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة غروش والبوسطة غرش ونصف

(٢) ﴿ ارمانوسة المصرية ﴾ (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(٣) ﴿ عذراء قريش ﴾ هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان ووقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٤) ﴿ ١٧ رمضان ﴾ او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة ستون باره

(٥) ﴿ المملوك الشارد ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في اوائل القرن التاسع عشر على عهد المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ثمانية غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٦) ﴿ اسير المتمهدي ﴾ رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها عشرة غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)

(٧) ﴿ استبداد المماليك ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ثمانية غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٨) ﴿ جهاد المحبين ﴾ رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

(٩) ﴿ تاريخ مصر الحديث ﴾ من الفتح الاسلامي الى هذه الايام مع ملخص تاريخها القديم وهو جزآن كبيران فيه مائة رسم واربع خارطات ثمنه اربعون غرشاً صاغاً واجرة البوسطة ٥ غروش

(١٠) ﴿ تاريخ الماسونية العام ﴾ وهو تاريخ الجمعية الماسونية منذ نشأتها الى هذه الايام ثمنه عشرون غرشاً صاغاً واجرة البوسطة غرشان

(١١) ﴿ التاريخ العام ﴾ الجزء الاول يتضمن تاريخ ممالك آسيا وافريقيا وخصوصاً مصر مزين بالرسوم ثمنه ثمانية غروش صاغ واجرة البوسطة غرش واحد

(١٢) ﴿ الفلسفة اللغوية ﴾ فيها بحث تحليلي للالفاظ العربية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(١٣) ﴿ جغرافية مصر ﴾ (طبعة ثانية) تتضمن جغرافية المديريات والمحافظات وخصوصاً القاهرة ثمنها وحدها ثلاثة غروش ومع الخارطة ٥

(١٤) ﴿ ردّ رنان ﴾ ردٌّ على انتقاد تاريخ مصر الحديث ثمنه غرش واحد

(١٥) ﴿ مختصر تاريخ اليونان والرومان ﴾ مزين بالرسوم ثمنه ثلاثة غروش والبوسطة عشرون باره

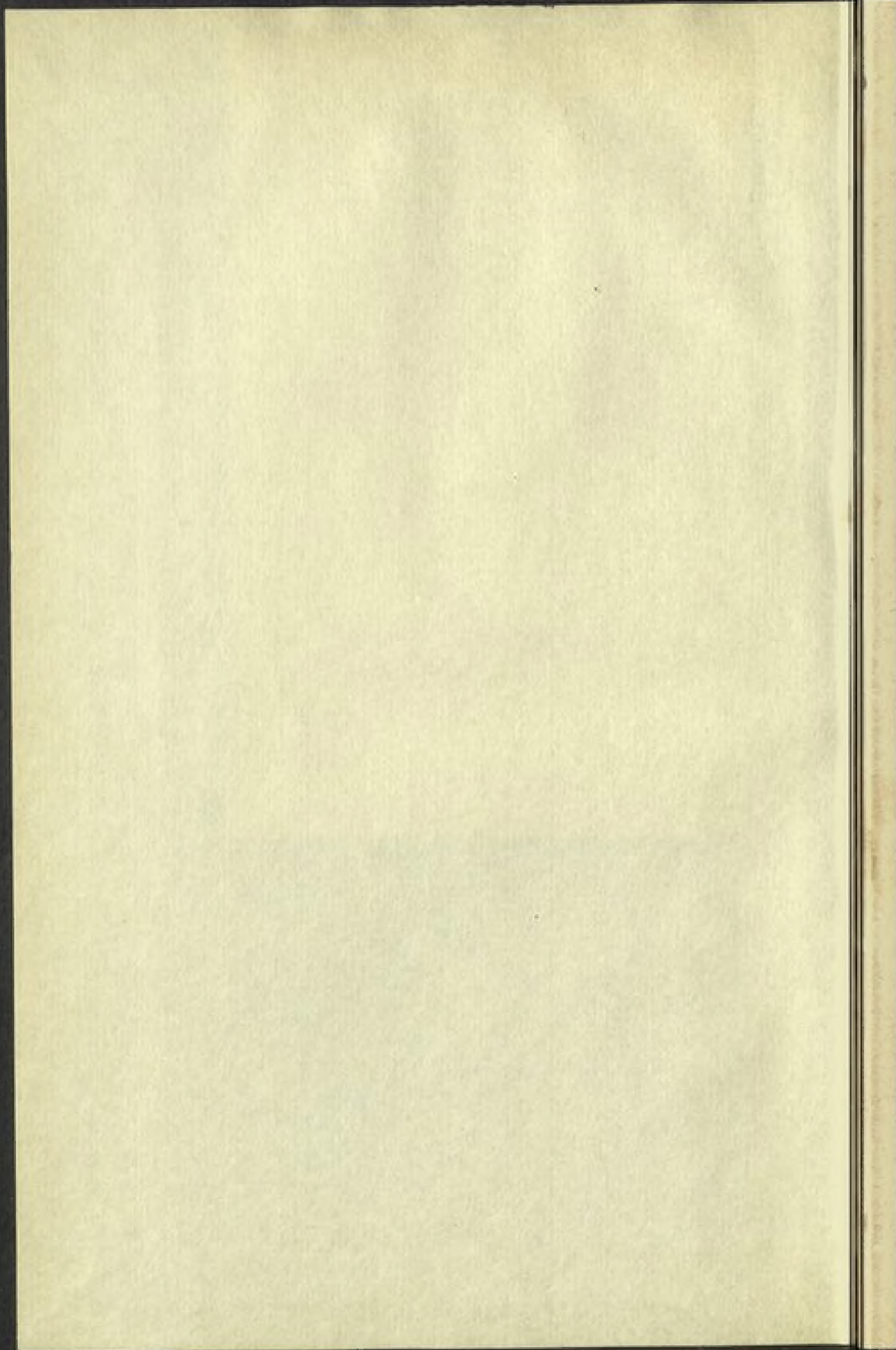
(١٦) ﴿ تاريخ انكلترا ﴾ هو مختصر تاريخها ينتهي الى آخر الدولة اليوركية سنة ١٤٨٥ وفيه رسوم واشكال ثمنه ٤ غروش والبوسطة غرش

الهلال

هي مجلة علمية تاريخية صحية لمنشئها جرجي افندي زيدان تبحث في كل الابحاث العربية الاسلامية وتواريخ الامم الشرقية والآثار الشرقية والآداب الشرقية وفي كل ما يحدث من الاختراعات والاكتشافات في العلم والصناعة ويلحق بها فصول من الروايات التاريخية الاسلامية . بدل اشتراكها ٦٠ غرشاً في القطر المصري وعشرون فرنكاً في الخارج ومن اراد الاطلاع عليه فليطلب مثالاً منه فيرسل اليه مجاناً

وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال بالفجالة بمصر

(المراد بالغرش في هذه القائمة الغرش المصري وهو يساوي ربع فرنك تقريباً)



DATE DUE



